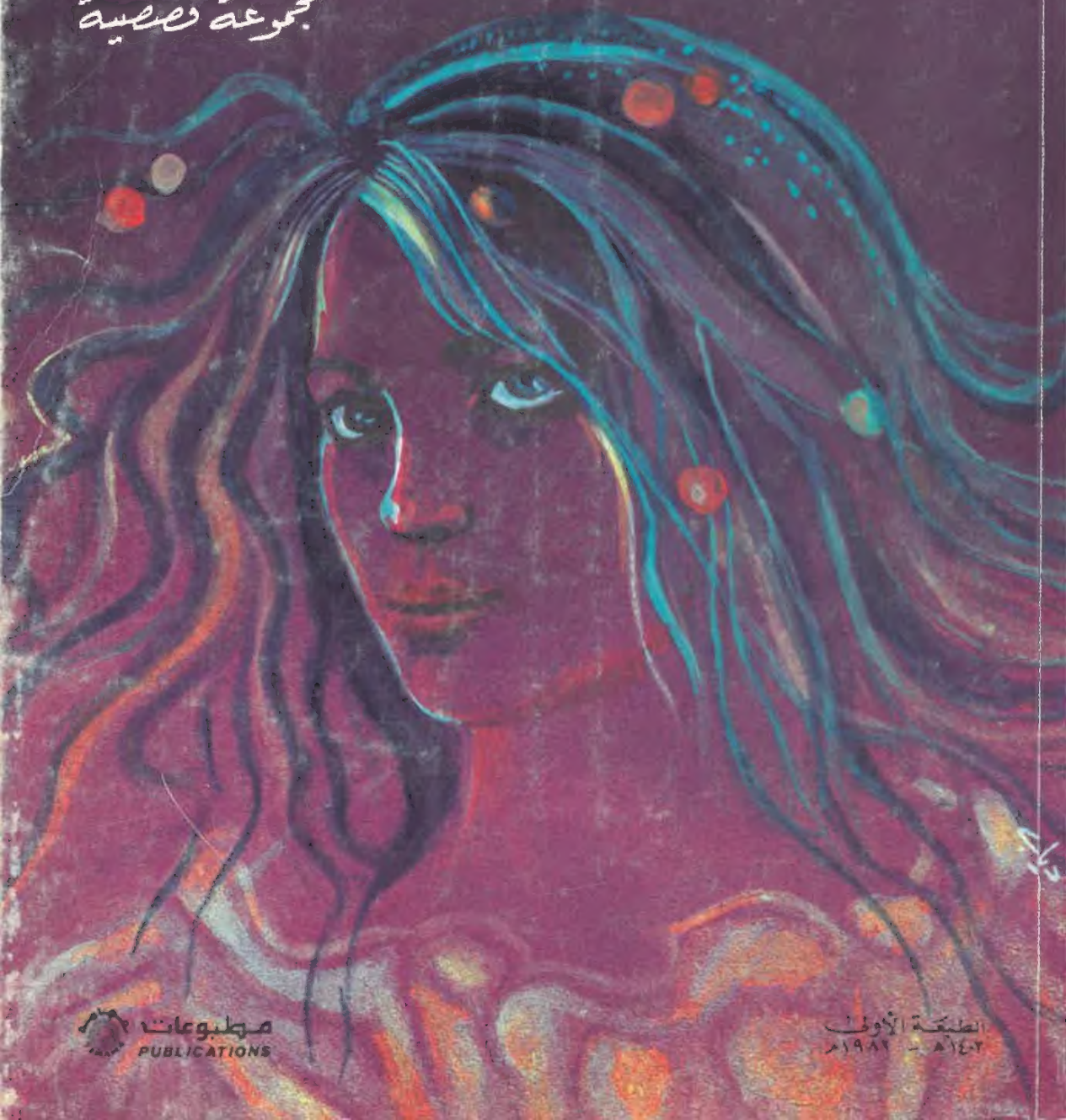


فؤاد عبد الحميد عنفاوي

أيام صبيحة

مجموعة قصصية



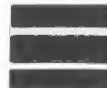
فؤاد عنقاوي

أيام مُبْعَثَرَة

مجموعة قصصية



مطبوعات
PUBLICATIONS



الطبعة الأولى
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م
جدة - المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الناشر

تهامة

جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

جميع الحقوق لهذه الطبعة محفوظة للناشر

أيام مُبْعَثَرَة

مجموعه قصصيه

مقدمة

بقلم: عبد الله جفري

تطايّرت عدة اتهامات ترصد الكثير ممّا ينشر بين دفتي كتاب، وتسدد إلى أسماء بعض الكاتبين، بقصد النيل من الشخص، وتجاوز انتقاد العمل الأدبي كإبداع أو كإفجاء، فاخترت فن النقد، واستمر نقد الفن، وتطاول حتى بات الحكم على الكلمة وكاتبها زقاقاً مكثظاً باللفظ!

وفي هذا القطار من اللفظ ضاع فن النقد، وتدفقت الكلمات المهذرة، والكلمات المستكينة، والكلمات الجارحة، والعبارات التي تآكلت أطرافها، ومثلها يقولون: لقد اختلط الحابل بالنابل... فلست تعرف اليوم من الذي درس فن النقد وتعمق فيه، ومن الذي ركب فوق الموجة باسم النقد، والكتابة أيّاً كانت، وجمع بهما! وأعترف أن الكثير من النقد ضل الطريق إلى الموضوعية والفكرة المجردة من الهوى والانفعالات، وانحصر في دائرة التجريح وتناول الذات والارتباط بالعنعنات الشخصية، والثارات القديمة بين كاتب وناقد.

إن التجرد لم يعد يمنح الشهرة والذيع، وأحسب أنها سحنة أو موضة العصر، فالشتم هو ميكروفون العصر سواء عبر الكلمة المقروءة أو المسموعة، وأصبح النيل من كاتب هو براعة جهيرة لكي تأخذ الكثير ممّا لا تتوقعه ولا تمتلكه أيضاً، وتُسلب الكثير ممّا هو حق خاص، وخلق مرهق، كأننا نحن نعيش البلطجة الفكرية!

* * *

لذلك كله، فقد شعرت بالحرج الشديد عندما طلب مني الأخ الأستاذ «فؤاد عنقاوي» أن أكتب مقدمة لمجموعته القصصية الجديدة هذه بعنوان: «أيام مبعثرة».. ذلك أنني أنظر إلى كل عمل أدبي يقدمه كاتب، هو محاولة تستحق التقدير والالتفات والرعاية، وكل عمل أدبي — مهما بلغت نسبة الإبداع فيه — لا بد أن يتعرض للنقد، وأن يجد نقاداً يفتشون فيه عن المثلث والسقطات. ولكننا — في هذا كله — نعتقد أن التطلع إلى الأصالة الفكرية، وإلى الإبداع المتكامل قضية يتناولها الكثير من ممثني النقد بغير لغتها، وبغير جغرافيتها، وتتطير الأسئلة في منطاد بشكل أسئلة بائع اللبن! أعترف — إذن — للمرة الثانية أن الكتابة أضحت لوحة ذات خطوط متعرجة ومتشابكة، وأن الكاتب كما فوهة مدفأة يُقَدَّف فيها بالخطب وتوهج بتلك المعاناة، وتَسْوَد بهذه الإحباطات التي تأتي بصيغة النقد من الذين لا يجيدون فن النقد بقدر ما يهدفون إلى التعريض بالكاتب!

إن الكاتب من أجل أن يقدم ويني عملاً فكرياً، وإبداعاً أدبياً فنياً، لا بد أن يتساءل: لمن أقدمه؟!

فإذا تجرأ، وتفاعل وقدمه، فكيف يعيد نفسه إلى التفاضل ومواصلة الفكرة والقدرة على الوقوف؟!

إن الكاتب لكي ينتشر ذيوماً محفوفاً بالرضى، فعليه أن يستمرىء بعض الوقت: انهماكية مُنظَّمة... تخضع فقط لعلاقته الخاصة مع من أراد أن يكتب، وأن ينتقد وأن يسلبه حقه الخاص!

ولا بد أنني أشفق على كل كاتب يقدم إنتاجه الأدبي للطرح في الأسواق، والشفقة عليه تكون لسببين: إما أن يتعرض لسلخ فروة أفكاره وشخصه أيضاً وتسفيه كل ما كتبه... تحت هدف النقد، وإما أن يصطدم بحقيقة غياب القارئ، وإهمال هذا العمل الأدبي الذي عانى في كتاباته وانصهر واشتعل وتلفت به نحو الحياة.

* * *

وأنتوقف هنا الآن بعد مقدمة المقدمة... لأتلفت بدوري نحو الكاتب القاص الأستاذ «فؤاد عنقاوي» ونعرف أن تجربته في إصدار الكتب محدودة أو قصيرة، فقد سبقت هذه المجموعة القصصية له: رواية اجتماعية عنوانها: «لا ظل تحت الجبل»، وقد

رأيت في تلك الرواية يدخل إلى بهو كتاب الرواية الحديثة وهو يمتلك قدرة وتصميماً على أن يعطي جديداً يلفت الانتباه إليه، وفي تلك الرواية كان يشبه عدسة المصور الفنان، وإن لم يحفل كثيراً بإعطاء الصورة التي اكتملت ألوانها.

ولكن «فؤاد عنقاوي» الذي مارس الكتابة الصحفية زمناً قد تأثر بطريقة الطرح في الصحافة، أو أنه اندرج في زحام الكتابة الصحفية التي سادت، ولعلها أيضاً طغت على المعالجات القصصية في إنتاج كثير من الذين تصدروا صفحات الجرائد، وأصدروا ما كتبوه في كتب مطبوعة ملونة المضمون: قصة، وقصيدة، ومبحث، ورواية، ومسرحية. وكتابة القصة في عالمنا العربي اليوم تراوح ما بين ملمحين:

● **الملمح الأول:** نجده في مجموعات قصصية لم يكن كتابها من الأدباء، بل هم من الصحفيين الذين عايشوا المجتمع ومشاكله وقصصه، فجاء الطرح أو العرض في تلك القصص سرداً لأحداث أو تصويراً لمواقف تخلو من ظلال العبارة الأدبية وتميل إلى طبيعة عدسة «الزوم» وقد لا نجد في القصة مواقف متعددة أو أحداثاً متلاحقة، ولكنها موقف واحد مؤطر بعدة حركات نفسية إذا جاز لي هذا التعبير!

● **والملمح الآخر:** نجده في مجموعات قصصية.. كتابها من الأدباء الذين يحفلون بالتصوير وبالتصور، وبالرمز، وبالإيحاء، ولكنهم بحكم العيش يعملون في الصحافة... غير أن هذا الاضطرار إلى الرزق والعمل، مع الميل إلى الأدب وفن العبارة والصورة.. جعلهم يجسّدون الصورة التي يرمزون بها ولا يرسمون ولا يصورون!

وعندما فرغت من قراءة هذه المجموعة القصصية للكاتب «فؤاد عنقاوي» وجدته يركّز نحو أصحاب الملمح الأول، أو أنه لم يكن في يوم ما من الكتاب الذين يستخدمون الرمز، أو العبارة الموحية، ولكنه يكتب مباشرة، ويصور مع الحرص على إبراز النزوايا والظلال في الصورة. ولم يأت تصويره للحدث أو للموقف في القصة من مسافة بعيدة بعض الشيء ليلتقط الجوانب، ولكنه يصنع الحدث أو الموقف من موقع قريب.

ولست هنا في موقع الناقد لهذه المجموعة، بل إنني أقدمها كخطوة جديدة للكاتب، فقد كانت خطوته الأولى إلينا: رواية، وكم تمنيت لو واصل هذا المشوار... ذلك أنني رأيت يأتني على خط الروائي السعودي الراحل «حامد دمنهوري»، أما وقد تمهل

قليلاً، وطلع علينا بالقصة القصيرة وهي الأصعب في العمل الدرامي، فإنني — رغم هذا — أنطلق إليه ككاتب طموح يستنهض الإبداع في قدراته الأدبية والفنية، ولا أرغب أن أتناول هذه المجموعة قصة وراء قصة على شكل شرحة اللحم، ولكنني أعتبر هذه المجموعة القصصية شرائح اجتماعية تختلف مواقفها وأحداثها، ولكنها تتحد في المضمون الذي هدف إليه الكاتب... هذا المضمون الذي اهتم به في هذه المجموعة لأنه يتميز بنوعية المجتمع الذي يصوره ويكتب من داخله، والاهتمام بتقلب حقه ومعرفة الجذور فيه، والتلقي العاجل والسريع والصريح، ولا أتمنى أن يأتي ناقد لهذه المجموعة ليركز على الشكل أو على الصور المتلاحقة فيها، فكما قالت الدكتور سهر القلماوي: «إن التأثير المتبادل بين مضمون العمل الفني وشكله أمر بالغ التعقيد»!

إنني هنا أتجاوز وظيفة الناقد، وألتزم وأهتم بما يختمر في ذهني كقارئ، وبما يتولد من أفكار عند الكاتب... يرتعش لها صدري، وفي رأيي أن من الإجحاف للكاتب أن يفرض عليه ناقد ما كتابة القصة، أو العمل الأدبي بالطريقة التي تروق له وتحدد تطلعاته، وليس بالتفاعل والامتلاء الذي يحس بهما الكاتب، وفي ذلك يقول الروائي الأمريكي «جاك لندن»:

— إن على الفنان أن يواجه الناس بالحقيقة. إن عليه أن يرفض دائماً أن يقوم بوظيفة الحمام التركي بالنسبة لهم، وما أصعب أن يمسك الكاتب الفنان بالجرمين أصابعه ويقول الحقيقة للناس بأسلوبه، وبعرضه، وبطريقته في التعبير!!
إنني — إذن — أستطيع أن أحفظ أو أحتفظ بمجموعة أقوال وآراء وعبارات لكاتب من الغرب والشرق، وأحشوها مقالاً أنتقد فيه عملاً أدبياً ليقال عني: إنني الناقد المتابع المتطور، وإنني ملم (بموضات) الكتابة الحديثة في العالم. هذا سهل جداً لو قدرت أن أستهن بالقارئ أو أتجاوزه وأرى نفسي فوقه، ولكنني أعتقد فيما قاله القاص المعروف «يوري تر يفونوف»: إنه من الصعب وضع حدود بين الأشكال الأدبية المختلفة، فعلى سبيل المثال: ما الاختلافات الأساسية — بعد الحجم — بين القصة القصيرة والرواية؟!.. إن قصص تشيخوف القصيرة ليست سوى روايات ضغطها بقوة!

* * *

وبعد...

إنني أقدم للقارئ كاتب قصة قصيرة... احتفل بالتصوير، ولم يحفل بالتصوير، ولكن خلفية كل قصة من هذه المجموعة هي بلا شك ذات انتهاء لهذا المجتمع. وفي تصوّري أن الكاتب القاص «فؤاد عنقاوي» لم يتوقف طويلاً أمام التساؤل الذي يطرحه كل كاتب عن عمله بعد مخاض كتابته، فيقول: لمن أقدمه؟!.. ذلك أنه قد قدمه إلى مجتمعه... واستطاع أن يمد كل شريحة من هذه الشرائح الاجتماعية بالنبض والحياة!!

* * *

تعريف .. وإهداء

في اعتقاد كثير من النقاد أن القصة القصيرة في تكوينها وسردها هي أصعب عمل أدبي يمكن للكاتب أو القاص أن يقدمه نموذجاً أدبياً متكاملًا... ومعروف أن العمل الأدبي — ككل — قد تعددت اتجاهاته، وكثرت مدارس... وما لبث النقد أن ارتبط بتلك الاتجاهات والمدارس... فخرج علينا النقد بمذاهب متفرقة وآراء متباينة تلتقي جميعها في محاولات لتقييم ذلك الإنتاج الفكري.

وكم أتمنى لهذه المجموعة من القصص ألا تلتزم بمذهب معين أو تنحى منحى يرضي النقد أو تجعلهم يصنفونها أو بعضاً منها في القوالب التي تبعدها عن كونها انعكاسات وتعبير لبيئة عاشتها مجموعة أبطال كل قصة... ذلك أن منبع هذه القصص والمصوب هو الإحساس... الإحساس الذي جعل منها كياناً دراماتيكياً أو انفعالات مجسمة تكاد تلمسها أو تحس بها عندما تقرأها وتتفاعل معها... ففراء كل قصة واقع عاشه كل شخص فيها... البعض قد لقي ربه وفارق هذه الدنيا، والبعض الآخر مازال يعيش مجترأً ذكرياته من الماضي البعيد...

إن كلاً من قصة «الشحات» — مثلاً — والأستاذ علي، وآخرك بايه يادشيش، وخالكق ماني مفارقك، وأيام مبعثرة، ليست مجرد قصص بقدر ما هي نماذج بشرية من مجتمع «مكة المكرمة» وما ارتبط به من تقاليد ومبادئ وعادات عفا على بعضها الزمن فاندثر كثير منها وتشبث البعض الباقي أشخاص لا يزالون يرون في استمراريتها الأصالة والخير.

فإلى أولئك الذين اختارهم الله للعالم الآخر... المغفرة والسلوان.
وإلى الذين لا يزالون أحياء يرزقون... أهدي إليهم سلاماً زكياً وتقديراً خاصاً.
والله الملهم إلى الصواب.

المؤلف

أيام مبصرة



أيام مبعثرة

أسند الأب ظهره إلى أقرب جدار بعد أن أحس بانفجار شديد داخل رأسه... وفتح
فأ عقدت الدهشة لسانه... وتوقف مخجراً عينيه عن الحركة...
وصاح في صوت مجوح غلبه البكاء والحسرة:
— «يا إلهي...
لا أصدق عيني... مستحيل... غير معقول...»

وأخذ يقلب صفحات الدفتر الذي خطته يد ابنته قبل أن تموت... وقرأ منه صفحات
مبعثرة، وتوقف عند الصفحات الأخيرة:
— «أموت كمدأ... أموت حسرة... أموت وفي قلبي حقد، على أبي... على
أمي... على المجتمع...»
وطوى ورقة أخرى:
— «الأم يعصف بي... الموت البطيء أشد قسوة... تعبت من انتظار النهاية...
متى تكون الخاتمة؟.. أوآه... ربي...»
وقفزت عيناه إلى السطور التالية وقلبه يدق بشدة...
— «ترى من هو المسؤول عن شقائي... في حياتي...؟؟»
... ترى من سيشقى بعد موتي؟؟

أبي...؟؟

أمي...؟؟

لقد قاسيا معي أثناء مرضي وتعبا... وارتجفا، ولكن...

ولم يطق صبراً... ويبد مرتجفة... وفؤاد ملهوف، وضمير مستيقظ، وعقل متحفز...
أخذ يقرأ الدفتر من أوله:
«يا يوم مولدي...»

متى كنت، وفي أي سنة أتيت، وما اسمك بين الأيام؟
في أي عام أشرقت شمس يومي فيك؟
تقول أمي: إنني أزعجت ليلتها وملأت بيتنا صراخاً عند أول إطلالة لي في دنيا
الغرباء — قبل عام من سيل الأربعاء المشهور — الذي داهم مكة وجرف معه أوساخ
البلدة وخرّب بيوتها حتى اقتحم الحرم ووصلت مياهه إلى باب الكعبة...
ياله من تاريخ مشهود... و ياله من سجل سوف لا يمحي من ذاكرتي...
لم أشعر بتبدل المشاعر نخوي إلا عندما هل في سمائنا قادم جديد... أخذ يستحوذ
على اهتمام أبي كله، وعناية أمي البالغة حتى صرت أكره هذا الطفل الذي أفهموني
أنه أخي وسيد البيت بعد أبي...
ماذا كان يعني لي هذا الكلام؟؟
وأيّن تلك العواطف التي كان يفجرها أمامهم ضحكي وبكائي؟؟»

* * *

أرسلوني إلى «الكتّاب» لأفك الحرف، وأتعلم قراءة القرآن... غرفة حقيرة
مفروشة «بالخصف» ومُدْرسة بلهاء لا تجيد سوى إعطاء الأوامر للبنات... شكراً لله
فلم يكن من الواجبات التي وزعتها «الخوجة» علينا سوى كنس الدرج... ومسكينة
تلك البنت التي كانت تقوم بتقطيع البصل وتقسير الثوم... كان منظر عينيها الدامعتين
يشير الضحك في نفوسنا...

أما تلك الفتاة التي كانت «ترعى طفلة الخوجة» فكانت محل شفقتنا...
كان اللوح الخشب المستطيل الذي كُتِب عليه حروف الأبجدية يزعجنا،
فكثيراً ما استقر على رؤوسنا بدلاً من العصا التي كُتِب نحفها عن عين المدرسة.

«ختمنا الخَتمَةَ»... كان عمري اثنتي عشرة سنة... وهذا نبوغ إن دل يومها على شيء فإنما يدل على موهبة الحفظ وقوة الاستيعاب (هكذا قالوا)... لا تسلم عن فرحتي آنذاك، وسخفه في نظري عندما خرجنا جميعاً ننشد الأناشيد ونلقي القصائد من الكُتَّاب حتى بيتنا حيث استقبلونا «بزقة وغطاريف» ووزعت «الحلاوة الباتاسا» على البنات والجيران والأقارب... وأحسست بعدها بالزهو على أخوتي الصغارين.

* * *

وجدت ضالتي... بعد أن حبسني أبي في البيت ومنع خروجي تمسّياً مع العُرف...

كتب كثيرة محفوظة في صندوق خشبي... فتحتُه بجذر وخوف شديد وتلصص زائد... أخذت أول كتاب وقع في يدي... هرعت إلى (المبيت) وأخذت أقرأ بصعوبة، فالكتاب لم يكن «مُشْكَلاً» كالمصحف الشريف... ولكن الوقت سرقني وأنا أقرأ أو أحاول أن أقرأ... كان الكتاب لذيذاً وقصته تشدني إليها... وعندما كنت أسمع حركة أو صوتاً أخبىء الكتاب تحت الحِذَّة.

وتكررت عمليات التلصص و«سرقة الكتب» من صندوق أبي وقراءتها بشغف... «عنترة... والزير سالم، ألف ليلة وليلة... ومجنون ليلي...» وتعوّدت عيناى قراءة تلك الكتب... وبدأت أستوعب ثم... أفهم ما كنت أقرأ... وأصبحت مدمنة على القراءة حتى ضببطني أمي بجرمي البالغ... ومنعتني... فاتجهت إلى تعلّم الكتابة، بذلت محاولات كبيرة وصبرت أشد الصبر حتى استقام بي الأمر... وفرحت بهذا الانتصار الثاني...
جاءنا زائر جديد...

فقد أوكلت أمي أمر طفلها الرابع إليّ... أعطني به وأنظفه، وأطعمه، وأسقيه... عانددت... بكيت... وأخيراً وافقت بعد أن وافقت أمي بشدة على السماح لي بالقراءة... قراءة تلك الكتب التي في الصندوق.

* * *

أحسست بمغص شديد... وشعرت بعوارض جديدة في جسمي، وبكيت وبكى الطفل... وجاءتني أمي تستطلع الصرخات التي كنت أطلقها غصباً عني... وأسبلت

عينني ... ورأت أُمِّي ما رأت، فابتسمت ابتسامة مازالت معلقة في ذاكرتي ... وقالت
لقد كبرت يا فتاتي ... وأصبحت أنثى ... ولم أفهم.
تغيّرت معاملة أُمِّي لي، وأصبحت حازمة صارمة معي ... واشتدت مراقبتها لي،
ولم تدعني أستمتع بقراءاتي، ولم تترك لي فرصة أنفرد فيها بنفسني.
الشيء الوحيد الذي أفرحني أنّها لم تعد تضربني بقسوة عند أول غلطة ... غير أنّ
أوامرها المشدّدة، ونهيها المستمر في كل تصرفاتها أزعجني ... «لا تفعل هذا، لا
تتكلمي بهذه الطريقة ... اخفضي صوتك ... لا تقفي وراء الشباك ... لا تكلمي
الصبيان ... لا ... لا ... لا ...» يكاد رأسي ينفجر كلما تذكرت تلك الكلمات.

* * *

زارتنا ابنة عمّي، وهي أكبر منّي قليلاً ... كانت بالنسبة لي أقرب إنسان إلى
قلبي ... عندما رأت شحوبي واضطرابي، وعندما سمعت حشجة غريبة في صوتي
ابتسمت ... «ما سر هذه الابتسامة؟» تساءلت مع نفسي ... وهمست في أذني،
وقالت لي كلاماً غريباً ... لم أفهمه ... وقالت: أنّ أوانك وأصبحت مؤهلة للزواج ...
ونظرت إليها مستطلعة ... مستزيدة ... فقد أعجبتني ما قالت، وكأنّ عالماً جديداً انفتح
أمامي ... وخرجت ... لتغلق باباً حديدياً خلفها ... تجلس أُمِّي أمامه محتفظة
بفاتيحه ...

وأصبح خروجي من البيت كمعركة حربية يتحتم عليّ أن أحضر لها العدة ...
بالتوسل، والرجاء والبكاء ... فلم يعد السجن الذي أنا فيه يريحني، كنت أريد أن
أتنسّم نسمة هواء منعشة ... أن ألتقي بأناش غير هذه المجموعة البشرية التي أعيش
بينها ... أناش يتحدثون ... يضحكون ... يرحون ...

ولكن هيات ... إن وافقت أُمِّي برفض أبي، وإن رضي أبي هددت أُمِّي
وتوعّدت ... وإن جادت الساء بخروج، فالحراسة تمشي أمامي وخلفي ... أخرج
إخواني الصغار في يدي وأعود قبل أن تنكس الشمس رأسها في المغيب.

* * *

وأبي...

أين هو متي؟

بل أقول: أين هو من أمي، ومتا جميعاً...؟

كان يختصر جلوسه في المقعد... يخرج طوال يومه ليعمل ويحلب لنا الرزق - كما كان يقول - وفي الليل تبدأ جلساته مع أصحابه هناك، وأذهب لأنام أنا وإخواني... وتنتظر أمي صعوده إليها...

وهكذا مرت الأيام سريعاً.

* * *

وكبرت، وكبر أخي، وكبرت همومي أيضاً... وكان أخي يحضر معه كتباً جديدة غير التي كنت أقرأها في صندوق أبي... وبحيل بارعة، ورجاءات خاصة، ووعود بغسل حوائجه وكتيها، ورشوته ببعض القروش القليلة التي كنت أتحصل عليها... كان يسمح لي بقراءة بعضها...

لا تسلم عن خييتي وقلة حيلتي عندما كان يغضب متي أو يثور عليّ لأنفه سبب فيحرمني قراءتها...

أصبحت كتب أخي سلوتي في حياتي... وجلّها عن الحب، والزواج، والعالم البعيد عن عيني، والمستحيل بالنسبة لي.

حياتي أصبحت كاخيار... كالقثاء... لا طعم لها... حياة رتيبة... مملة أيقظني من ركودها ذلك الاختراع اللذيذ الذي أحضره أبي إلينا بعد رجاء حار، وتوسل متواصل، وبكاء مستمر... أصبح الراديو سلوتي، وعزائي في هذه الدنيا... أقضي معه أطول ساعات عرفها التاريخ... أطول من ليالي قيس وليلى...

* * *

كنت أرقب دوماً الحياة الزوجية بين أبي وأمّي... أقارن بينها وبين ما أقرأ وما أسمع... أواه رتي... كيف يمكن لزوجين أن يعيشا معاً وهما لا يحملان وداً ولا حباً لبعض؟ كيف تنام أمي وأبي غاضب عليها؟ وكيف يستريح أبي وأمّي حاقدة عليه..؟ كنت أرى أن حياتها جحيم وقوده الخصام، وناره الاحتقار، وسعيه الإهمال واللامبالاة، ولهبه ذاك السباب الذي يتطاير من الأفواه فيصيب مسامعنا نحن الأطفال...

و يوماً بعد يوم، صرت أحفظ كل ذلك السباب، واللّعنات، وأعتقد أنّي أصبحت أعرف كيف أثير زوبعة عارمة في البيت؟ متى احتجت إليها، بل لقد ساعدني ذلك الجوّ الصّاخب على أن أكون سليطة اللّسان إذا ما امتحنت في ذلك.

* * *

تزوجت بنت عمّي... ولبسنا أبهى الحلي وأعلى الملابس... وفرحنا بإقامة الولائم والعزائم... لم أكن متشوّقة إلى كل ذلك... بقدر ما كنت متلهّفة إلى تلك الأخبار الخاصة... واجتمعت أنا وشلّة من البنات، وأخذت ابنة عمّي تقصّ علينا في دلال وسحر تفاصيل ما جرى...

ورنّت في أذني ضربات جديدة لم أتعوّدها...
وسقطت في قلبي حصوة جافة من المرارة والحقد...
وبدأت عيني تنظر في الأفق البعيدة، ومحاجرها تبحث عن ضالة لا أجدها أمامي...

* * *

واشتدت ثوراتي مع أمّي، وازداد خصامي معها، وصارت لا تكلفني بعمل إلّا وتسمع المسكينة سيلاً من الاحتجاج، وصرخات التحدّي، وأخيراً أعلنت الرّفص لكل ما تطلب...

حاورتني أمّي في ذلك تجنّباً للمشاكل، وكان قلبي يرق لها أحياناً عندما أرى دمعات حيرى تترقرق في محاجرها، غير أنّي أصبح كاسرة كاللبوة عندما تمنعني من الخروج أو القراءة أو سماع الراديو... ولكنّها كانت لا ترفع أمرّي إلى أبي مخافة أن يبطش بي أو يقسو عليّ بالضرب بعد أن أصبحت وسيلته الوحيدة في الإعراب عن مشاعره نحونا وإظهار تأقّفه وضيقه بالجوّ العائلي الذي أخذ يزداد سوءاً، تلفّه قسوة، ويطويه لامبالاة.

* * *

كدت أطير من الفرح... وأخذ قلبي يرقص طرباً... فقد طرق بابنا عريس، جاء يخطبني من أبي... عرفت ذلك من أخي... وتلصّصت خلف الشباك كي أراه مرة... مرة واحدة، فلم أفلح...

وأخذت أحلامي العريضة تتسع، وآمالي تزداد، فسوف أخلص من هذا الجحيم،
وسوف أنتقل إلى عش الزوجية لأبني بيتاً سعيداً وأربي أطفالاً... و...

ولكن أبي رفض بشدة، وبكيت بيني وبين نفسي، وأحسست بخيبة أمل كبيرة،
وفقدت شهيتي للأكل، وأهملت نفسي، ولم تفلح كل توسلات أُمِّي في إقناعي بتناول
وجبة واحدة من الطعام رغم أنها لا تعرف سبب ذلك...

وازدادت حقداً بيني وبين نفسي على أبي، وإصراراً على تجنّب الأكل — عندما
علمت أن رفضه للعريس البذي جاء يطلبني كان أناية منه، فأنا التي كنت أقوم
بمسؤولية البيت وخدمته، و يقتصر عمل أُمِّي على تربية الأطفال الذين أخذوا يتكاثرون
واحداً بعد الآخر... وازداد نحولي، وشحوبي، فقد كنت أريد أن أخلص من هذا
الجحيم.

وفجأة...

أحبست بالآلام في صدري، ومغص حاد شديد وإسهال فظيع ينتابني، وكتمته أول
الأمر مستعينة بالوصفات البلدية، وبالبكاء وشد البطن...

وازداد الألم، وضعف جسمي، وهزل جسدي، ووهن عظمي، ولم تقو قدماي على
الوقوف...

وصحوت في إحدى الليالي وأنا أكح كحة جافة آلتني في حلقي، وصدري...
ورحت أحمق غير مصدقة في ذلك البصاق الذي خرج من فمي...

أواه... يا إلهي... إنه دم...

وفي الصباح بعد ليلة مليئة بالهواجس والأوهام... أخبرت أُمِّي... فلم تزد على أن
قالت: «سُفِّي جنز بيل... وبلاش قلقة».

وتجرات، وأخبرت أبي في لحظة من لحظات رضاه عن العائلة... فقال بعد أن هز
رأسه: «شوية برد، و يروح».

* * *

أحس الآن وقد أصبحت هزيلة شاحبة اللون يتدفق الدم من صدري إنني أسير
بطيء إلى نهاية محتومة...

أردت قبل أن أودع الحياة أن تكون لي ابنة حلوة كأنغام الموسيقى، أو ولد صغير

* * *

يملاً كياني فأسعده و يسعدني... بدلاً من إخواني الذين تعبت معهم... تمتيت أن
يكون لي بيت أملؤه سعادة وهجة وسروراً بدلاً من ذلك الصراخ وتلك الشتائم التي
كانت تملأ جو الأسرة وتملاً حياتنا...
وددت لو أن حظي كان سعيداً كابنة عمي فأتعرف على الدنيا وأنعم بملذاتها
ومطايها...

ولكن...

إن ضعفي يشتد، وجسمي يعجز عن الحركة، ولم يبق في شيء نشاط سوى عقلي،
إنه يضغط عليّ بالتفكير... في ذاتي... وفي أسرتي... وفي هذا المجتمع، وفي تلك
التقاليد.

أواه ربّي... لم يعد في شيء...

فوداعاً...

وليساحكم الله... وليساحمني معكم...

وداعاً...

* * *

اشعار



الشحات

كنا صبية صغاراً لا يتجاوز عمر الواحد منا اثنتي عشرة سنة... نذهب إلى المدرسة سوياً بعد أن نتجمع صباحاً في «البرحة» الواقعة في منتصف جبل «السبع البنات» بحارة أجياد - والتي تؤدي من الناحية الغربية إلى «دحديرة» العرضي - حيث كانت ثكنة جنود الشرطة بجوار دار الأيتام وكنا نتسلى في العصري بالاستعراض اليومي على أنغام «المزيكة» التي تصدح صباحاً ومساءً... مترقبين «البرزان» الذي يعلن أوقات الصلاة، ووجبات الأكل، وساعات الاستعداد والتأهب للتجمع... وكما كنا نتلذذ بالمشي في ذلك الشارع الفسيح المظلة جوانبه بالأشجار الكبيرة على الجانبين ونتنشق روائح زهرة النيم الجميلة... كما كنا نجري وراء سيارة «رشاش» البلدية وهي ترش العرضي بالماء بعد صلاة العصر وقبل الاستعراض... ولا تسل عن اعتزازنا بحارتنا وهي تحتضن ذلك الشارع الرئيسي المهم يشمخ في وسطه أكبر فندق في مكة المكرمة وأضخم مبنى حكومي - وزارة المالية - ... وكان العرضي يجتذب مئات من الشباب والرجال وقد تعلق في أيدي بعضهم أطفالهم لمشاهدة «المزيكة» والاستعراض العسكري المدهش، بل كنا نباهي به بعض الأولاد من غير حارتنا.

ولما كانت تلك البرحة تجمعنا لنذهب سوياً إلى المدرسة حاملاً كل منا شنتطته «التنك» بألوانها الزاهية فوق رأسه... كانت البرحة أيضاً مقر وموعد لقائنا كل عصر وأيام الجمع والأعياد نستمتع بلعب «الكبوش»، والبرجو، والكبت» وغير ذلك من الألعاب الشعبية آنذاك، وفيها نستمتع إلى الأفاصيص والحكايات يسردها عم «صديق العم»... وكان بحكم عمله يعرف كل من في الجبل من صغير وكبير، كما يعرف

أهله وساكنتيه، والذين رحلوا إلى دار الآخرة، أو نقلوا من الحارة... وكان رجلاً طيباً موقفاً للخير يساعد الضعيف ويسهر على المرضى... وهو دائماً في خدمة العاجز والأرملة أو «المقطوعة» كما كان يسميها.

ولا عجب أن كانت الحيرة تملأنا عندما كنا نشاهد ذلك الرجل الغريب الذي هبط على جبلنا وسكن في أعلى الجبل من الناحية الشرقية الجنوبية المقابلة للمسجد الحرام... وكنا نجتمع حوله عندما يمر، ونسلم عليه أو نكلّمه... ولكنه لا يرد علينا، بل إن بعضاً منا تحرّش به بغية أن نسمع صوته أو نعرف لغته... ولكنه كان دائماً لا نثداً بالصمت... وكان أكثر ما يعجبنا فيه تكوينه الجسماني... ولبسه الغريب...

كان ذلك الغريب... قصيراً، نحيل الجسم، وله رأس كبير، ووجه مستطيل، وكانت لحيته تصك وجهه مذبذبة من أسفل الذقن، طويلة إلى حد ما، وفوقها يرقد شارب عريض طويل، وشعراته خليط بين الرمادي والأبيض، وكان يلبس قيصاً «هندياً» يصل إلى ما تحت الركبة، أخضر اللون، وسروالاً رمادي اللون — ولكنه في أغلب الظن — أبيض وربما اكتسب اللون الرمادي بمرور السنين عليه... وكان يضع فوق رأسه طربوشاً أحمر يلف عليه قطعة قماش خضراء وسجادة سوداء على كتفه... وسبحة — نعتقد أنها (ألفيّة) من حبات الخشب — معلقة في رقبته... كما كان يلبس في أصابع يديه الاثنتين خواتم سوداء — ربما كانت من النحاس أو الفضة أو الذهب — لا أحد يقطع بقول — فالوسخ قد حوّل لونها إلى سواد كما ذكرت... وأما ما يلبسه في قدميه فشيء لا أستطيع تحديده حسب مفهومنا ونحن صغار، فلا هو بـ «التلّيك» (١) ولا هو — خف وبابوج — كما أنه بعيد عن المداس أو «التاسومة» التي كنا نستعملها في تلك الأيام... ربما شيء ابتكره أو أحضره معه من بلاده البعيدة.

وأتباعاً لفضولنا نحن الصبية الصغار هرعنا إلى عم صديق لعل عنده الجواب الشافي عن حقيقة ذلك الغريب... غير أن عم صديق كان أشدّ متناً رغبة وفضولاً في معرفة حقيقة أمره — وخطط يداً ناشفة على صلته الممتدة من جبينه إلى أسفل رأسه — بعد أن أراح «العمّة» قائلاً: «... وربك... لازم أجيب قراره... وأعرف أصله وفصله، ولو بعد حين...»

(١) نعل خفيف من الجلد.

وقررنا نحن الصبية الصغار أن نقوم بمراقبته وملاحقته لمعرفة أين يذهب؟ وكيف يقضي يومه؟؟... وابتدأنا بسؤال عم يسلم الحضرمي صاحب الدكان الذي يقع عند مفترق الدحديرة فأجابنا أنه يرى ذلك الغريب في صعوده الجبل وهبوطه... وأنه أضبط في مواعيده من ساعة «الحميدية» الرسمية للحكومة... فهو ينزل من «الصندقة» التي يسكن فيها بعد شروق الشمس بقليل، و يعود بعد صلاة الظهر، ثم ينزل من الجبل قبل صلاة العصر ولا يعود إلا بعد صلاة العشاء حاملاً في يده قرطاساً لا يتغير حجمه أبداً... وقد وقع الاختيار على اثنين من الأولاد المشهود لهم بالجري و«الزوغان» وكلفناهما بمراقبته طوال النهار... وقد كنت أحد هذين الولدين...

وفي اليوم المحدد... يوم الجمعة... انتظرناه عند عم يسلم الحضرمي... ومشينا ورائه وهو لا يحس بنا... ورغم أنه كان رجلاً في الخمسين من عمره تقريباً إلا أن خطواته وهو ينزل من الدحديرة التي تنحدر انحداراً شديداً عند أسفل الجبل وتتكوّم على أطرافها أحجار وأوساخ وأتربة تتسرب من تحتها المياه التي يستعملها أهالي الجبل في بيوتهم... أقول: كانت خطواته ثابتة خفيفة كخفة القط وهو يقفز من فوق هذا الحجر إلى ذاك لا يتكئ على عصا ولا يستند على جدار كما كان يفعل من هم في سته...

وكان لا يلتفت إلى أحد، ولا يسلم على الناس الجالسين فوق دكة أو تحت روشن... حتى الكلاب التي كانت تقفز أمامه وهي تسابق بعضها صعوداً أو هبوطاً من الدحديرة لا يعيرها انتباهاً مع أنها كلاب مشهورة في جبلنا اكتسبت شهرتها من نباحها الذي يسمع في جبل أبي قبيس وكثرة عددها الذي لم يستطع أحد حصره... وعند منعطف الزقاق المؤدي إلى شارع السد شمالاً اتجه إلى الحرم الشريف... وتابعناه في قلب ووجل... حتى إذا حاذى المستشفى العام اتجه إلى باب أجياد... وبعد أن توقف قليلاً أمام قهوة قاسم نفخو وكأنه يسترد أنفاسه أو يقرر أمراً... اتجه فوراً إلى «التكية»... ووقفنا نحن على مسافة قريبة منه... وسرعان ما رأيناه يدلف إلى حوش التكية يعود بعدها حاملاً في يده «قرص عيش وطاسة شوربة» ويجلس القرفصاء لياًكل... وبعد أن ملأ بطنه وشبع... اتجه إلى الحرم الشريف... وعند المدخل خلع ذلك الشيء الذي تحدثت عنه - كالنعل - وحمله تحت إبطه ومشى... ولما كنا مكلفين من قبل «البشكة» بملاحقته... مشينا ورائه... وتوقف في صحن الطواف

أمام المقام الحنفي — قليلاً — ثم اتجه إلى باب السلام ونحن نمشي خلفه دون أن يحس بنا... وهناك في المسعى افترش سجادته السوداء وبسط يده يستجدي الناس... وطرنا إلى الجبل... وتجمع الأولاد من حولنا... وكان خبر الملاحقة والمتابعة قد انتشر بواسطة عم صديق... فانضم إلى الحلقة التي كنا نعقدها فوق «قوز البطحاء» بعض من كبارنا... وقصصنا عليهم قصة الغريب والاكتشاف العظيم الذي قنا به... وألقينا القنبلة التي دوت أصداؤها في الآذان... إنه شحات... وترجم عم صديق شعورنا — على ما نعتقد — عندما قال: «شحات وعينه بارحة».

وكان يمكن أن تمر أيامه ولياليه معنا في الحارة من غير أن نعيه اهتماماً حيث تأكد لنا أنه لا يريد أن يكلم أحداً... — ربما لأنه أبكم — لولا تلك الحادثة المشهودة التي أظهر فيها شجاعة نادرة جعلتنا نحسب له ألف حساب، وأكبرته في أعيننا إكباراً منع عنه الأذية أو المضايقة وهو صاعد هابط الجبل من أمامنا... ذلك أنا كنا نلعب «الكورة»، وكان ذلك اليوم هو عصر ثاني أيام العيد السعيد، وقد أحضر لنا الواد حمودة كورة شراب جديدة وقال: إن أمه وعدته بها «عيدية» لأنها قامت بحشوها بالخروق الثقيلة... وهي من الصوف — كما يدعي — نقلاً عن أمه... والشراب الذي يلفها شراب «فرتكوس» هدية أبيه لأمه أيام العرس... ما علينا فيما يقوله حمودة ويمتدح به الشراب بقدر ما تهمننا الكورة نفسها... واشتد بنا الحماس في لعبة «على أول يقت»... ولما وصلنا إلى دور «على أول قلبي» كان أحدنا وهو «جمعان» أو «أبودلش» — لا أذكر الآن — وهو أقوى من يضرب الكورة «عالي» برجله لتغيب عن النظر... واندفعنا جميعاً وراء الكورة خوفاً من أن تقع في المهلك... ولصلايتها وشدة دورانها تدحرجت أمامنا في الدحديرة وانحرفت إلى اليمين واستقرت في وسط السرداب... محيية آمالنا، ووقفنا مشدوهين... خائفين... نادمين... ينظر بعضنا في وجه بعض فيخطو هذا إلى وراء وكأنه يستغيث... لا... ليس أنا... ومن كان يجرو أن يدوس أو يخطو خطوة واحدة صوب السرداب... عفواً... لم يكن اسمه معروفاً لدينا بالسرداب... كان الصغار والكبار... وخاصة النساء يعرفونه باسم «الدُّجيرة»... حتى أنه عندما يخرج أحدنا من البيت للعب توصيه أمه وصيتين مهمتين: «لا تتأخر يا واد عن المغرب... ولا تروح عند الدُّجيرة... بعدين تاخذك...»، وضاع أملنا في

تمضية عيد مزدهر مليء باللعب بالكورة التي انتظرناها طوال شهر رمضان .. وعاوننا الأمل عندما استطاع أحدها أن يتكلم بعد أن انحبس الكلام في «حلقنا» دقائق خلناها دهرأ... «ايش نسوي يا عيال؟؟»، ولكن... مَنْ مِنَ العيال يستطيع أن يعمل شيئاً؟؟... وفيما نحن في هرج ومرج، وكر وفر... رأينا... رأينا الشحات يقبل من أسفل... ورآنا ونحن مجتمعون على غير عادة والخوف باد علينا، والوجل والخبجل مرسومان على وجوهنا... وكأنه سمع كلمة الكورة... ولا بد أنه رآنا وهو نازل بعد صلاة العصر، ولم ننتبه إلى أن الليل قد أرخى سدوله إلا حين أقبل عمنا الشحات... حتى فوانيس البلدية لم نلاحظ إضاءتها إذ كنا مشغولين في التفكير في وسيلة لإخراج الكورة من الدُّجيرة، ونظر إلينا مشفقاً... وكأن لسان حاله يقول: ...مجانين!! وكذا نصدق أننا مجانين عندما رأيناه يخطو بقدم ثابتة وقامة قصيرة مشدودة ويتجه إلى أسفل السرداب... والتصق بعضنا ببعض... ونجّلت من نفسي عندما لم تعد رجلاي تحملاني لولا أن الواد حمودة نفسه استند على كتفي وأمسكت يده فإذا هي باردة كالثلج مرتعشة كالطير... وساد الصمت بيننا... وما هي إلا لحظات... وظهر مرة أخرى وهو يحمل في يده خمس أو ست «كورات» من بينها كورة حمودة الجديدة... ألقاها أمامنا... ومشى في طريقه من غير أن ينبس بكلمة... ولكن من هذا الذي ينتظر منه كلاماً بعد أن أهدى كل واحد منا كورة — لم يكن يحلم بها — ؟؟؟!!

وكبر الرجل في أعيننا... وتحدث الجبل عن بطولته... وأزاح عن كاهلنا عبثاً ثقيلاً حملناه معنا منذ ولادتنا — وربما حمله من قبلنا — وتضاربت الأقوال حوله... هل هو ولي يملك كرامات خاصة؟؟ أو رجل عنده خدام من الجن لذلك لم يكن خائفاً من الدُّجيرة لأنها واحدة منهم؟؟... وكان الاعتقاد السائد بيننا... أن أحداً من الصالحين استطاع أن يوقف أذيتها بعد أن كانت تتعرض للأطفال فحبسها ورصدها في ذلك السرداب.

ما علينا... فلم نعد نهتم بتلك الأسطورة... بل وتجراً بعضنا وقرروا أن يقتحموا ذلك السرداب بحثاً عن كورة عندما أفلسنا جميعاً من كور.

وفجأة... تغيب عن أنظارنا عمنا الشحات، لم نره ذلك اليوم أو اليوم الذي قبله... وجرينا إلى عم يسلم الحضرمي نسأله إن كان قد رآه صباحاً أو مساءً فأكد لنا أنه لم يلاحظه كالعادة...

وفي المساء استطاع كل واحد أن يجد له عذراً يبرره خروجه من البيت، وتجمعنا عند عم صديق في البرحة، وقصصنا عليه الحكاية وأبدينا مخاوفنا من أن يكون مريضاً أو محتاجاً لعون أو مساعدة... وخبط عم صديق على جبينه - كعادته - قائلاً: «انحص يا عيال... يومين بحالهم وما تقولولي... قوموا هيا...» وسحب «الشون» واتكأ عليه... واتجه إلى أعلى الجبل ونحن من ورائه... وبدد الظلام فانوس عم صديق الذي كان يحمله... ووقفنا على الباب والظلام والهدوء يخيمان على الصندوق ونباح الكلاب يزداد... فيزداد المكان وحشة... وطرقنا الباب... وطرقناه... ولا أحد يجيب... ونظر بعضنا إلى الآخر... ثم انتظرنا أن يقول عم صديق كلمته: «هيا...» إلا أن صوته جاء كلسعة عقرب... «يكون مات يا عيال؟!؟!» وارتعشت يداي، واشتدت ضربات قلبي... وأخذت أردد «مات... مات...» واندفعنا نفتحم الباب... إلا أن عم صديق زعق زعقة في الواد جابر: «لا... روح أول للعمدة وقُلله... عم صديق يقولك تعال قوام... وإذا ما تقدر... ارسل النقيب...»

وجاء النقيب بعد طول انتظار... وقلوبنا وجلة، وعيوننا زائغة وكل واحد في المجموعة يتحرق شوقاً إلى معرفة السر... واقتحمنا الباب... وصعقنا من المنظر... وكانت الدهشة أقوى على وجوه الكبار منا نحن الصغار... ولم نصدق أعيننا... كان الشحات جالساً... مسنداً ظهره على الصندوق... ممدداً رجله... وعيناه مفتوحتان بارزتان... وقد انتفخ جسمه ورائحة كريهة تملأ جو الصندوق... وعندما تقدمنا خطوة أخرى رأينا على الضوء المنبعث من الفانوس شيئاً أشبه بما يرى في الأحلام... كان بين رجله تنكة «صفيحة» مليئة بالريالات الفضية وقد تناثر بعضها على الأرض... كما كان بينها أنصاف وأرباع الريالات وعندما أدار عم صديق الفانوس بحركة لا شعورية نحو ذلك الشيء الذي يضيء كالذهب... كانت هناك تنكة أخرى تحت متكئه الأيمن مليئة بالجنيهات العثماني والغازيات التي تمتلك أمتي واحدة منها... تخبئها في مكان أمين ولا تتمتع برؤيتها إلا مرتين في العام... تلك هي «عقدة كفنها» كما تقول... وعندما تمالكنا أنفسنا... خرجنا بهذا الكنز الذي هبط علينا، وأردنا أن نتبادل التهاني، ولكن صرخة النقيب أوقفت أطماعنا... وأنهت آمالنا: «شيلوا يدكم يا بزورة... هاذي فلوس حقت بيت المال...».

وعند خروجنا ... اختلى عم صديق بالنقيب وهمس في اذنيه: «مين يصدق هذا الكلام يا بابا؟؟ شحات وعنده كنز!! أقطع يميني إذا ما كان عنده خدام!!...»
ومرت الأيام والسنون ... وصار الشحات علماً من أعلام جبلتنا ... نحكي قصة بطولاته ... ونباهي بها ونفاخر ... ولم نقبل أن يكون مجهول الاسم والهوية ... إذ أصبح يحمل اسم «غريب أبو الذهب» من سكان جبل «سبع البتات».

* * *

سجادة رخاں



سجادة رخفان

كل شيء فيه يوحي بالأبهة والجاه والثناء والذوق الرفيع ... الشكل الخارجي ...
«الديكور الداخلي» ... الأثاث ... التحف ... النجف ... السجاد ... الصور
واللوحات الزيتية ... الحجر المرمرى ... الفسيفساء ... كأن يد فنان أبدعت ذلك
القصر المنيف ، وكأن أخصائي تجميل أو مهندساً معمارياً سكب فنه في كل زاوية ...
أو أن مخرجاً سينمائياً سلط أضواءه على كل قطعة من موجوداته فغدت وكأنها تحكي
حكاية زمن ، أو تنادي بصيحات الإبداع تحدياً وتعدياً ...

ومن بين النغمات الحاملة التي انبعثت من ركن بعيد سمعت وقع أقدام خفيفة
متراقصة ... ما لبث أن انعكس الضوء الخافت على شعر متموج جميل ... فغدا وكأنه
خيوط شمس ذهبية في يوم صاف جميل وكأنها تودعه حزينة على فراقه لتغيب وراء
الأفق المجهول ... وسمعت كلمات ناعمة كأنها همس في الظلام تقول في رقة وعذوبة:
— لا عليك يا فتحة ... ابجشي عن السوار في غرفة نومي مرة أخرى ... أو انظري في
الحمام الوردي لعلني نسيتك هناك ... أواه ربي!!! لعلني تركته في غرفة
الملابس ... بالله عليك ... ابجشي عنه جيداً فسيذكّك سيلحظ اختفائه من
يدي ... وسيثور كعادته!!! ...

— أمرك سيدتي ... سأبحث عنه في كل ركن وفي كل زاوية من الطابق العلوي ...
فأنا قد خبرت سيدي وغضبته!!! .

— لا تنسي — أيضاً — أن تسألني المربية عنه ... فلعل ولدي (سمير) أخذه معه في

- يده... أو خبأه في مكان ما في غرفته...
- نعم سيدتي... سأسألها... وأسأل الله ألا يكون سمير قد قام بتكسيه كما يفعل مع بقية لعبه.
- لا أستبعد ذلك... فإنه ولد مدلل كما تعرفين... فأسرعي... أسرعي...

وحانت منها التفاتة إلى حيث الركن الشرقي المفضل لدى زوجها... وفاجأها عندما رآته وراء مكتبه بعد أن عاد مبكراً يراجع أوراقه كعادته عندما يريد أن يدقق فواتير محلاته التجارية... أو أن يختلي لنفسه حيث تهدأ أعصابه ويرتاح من عناء يوم شاق طويل.

مشيت في تودة واستحياء... وفي خفة ورشاقة ودون أن يلحظ دخولها الغرفة... سارت كالطيف ووقفت وراءه... ومدت يداً بضمة ناعمة إلى رأس زوجها تداعب أناملها الرقيقة شعره الأسود الطويل الذي انسدل وراء رقبتة... وأخذت تمر أصابعها المزينة بمحفنة من خواتم الماس على خصلاته... وموجة من حب تتلاطم بين حنايا صدرها...

فلقد أحبت زوجها حباً أبدياً جارفاً من أول يوم تلاقيا فيه... وسكن ذلك الحب في قرارة نفسها... وترتبع على عرش قلبها..

كان أول رجل في حياتها... وهبته روحها وعقلها وجسدها... وسمحت له أن يتغلغل في طبّات نفسها...

كريمًا... سمحاً... قوياً... مخلصاً... شهماً... عطوفاً... ودوداً... يحبها حباً أعمى... ويفار عليها غيرة جنونية...

وهبط قلبها بين ضلوعها عندما تذكّرت غيرته... وارتعشت أناملها وهي تداعب شعرات رأسه تحسباً من أن يتنبّه لغياب سوارها الذي قيد به يدها هدية منه... وانتفضت كعصفور صغير خوفاً من نظراته التي يرسلها من عينيه فيسلبها إرادتها وتفقد سيطرتها على نفسها تحت وطأة تعابير وجهه الصارمة.

ومحركة لا إرادية سحبت يدها من بين خصلات شعره، وأيقظتها لفتة وجهه المباغتة... وقال لها — وكأنه تذكر شيئاً مهماً:

— كيف كان يومك؟؟..
هل أجهدت نفسك فيه كعادتك؟؟ ألم يؤد الخدم واجباتهم كما ينبغي؟؟..
هل أتعبك هذا الولد الشقي؟؟
قولي... تحدثني... قصي عليّ كيف قضيت سحابة النهار؟؟.
ألم يترك أحد؟؟
هل جاء أخي مروان إلى هنا؟؟.. إن والدتي أخبرتني — بالتليفون — إنه ينوي
زيارتي والاعتذار عن سوء تصرفاته!!!.

وحلق فيها هنيئة وقد أخذتها المفاجأة... فتلعثم لسانها... وأحسّت بجفاف
حلقها... فالبث أن تبدّل صوته... وبدت على محيّا القسوة والصرامة... وسرت
موجة من غضب في دمه... فاحمرت عيناه... وبرزت حدقاته... فارتعدت
فرائصها... واصطكبت أسنانها ولم تجرؤ على الكلام...
فانفجر طارق صائحاً:

— قولي... تكلمي...
ألم يتلكأ السائق هنا عندما أرسلته إليك قبل الظهر؟؟!! لقد تغيب أكثر ممّا
يجب... وعندما سألته أجاب بأنك طلبت منه شراء دواء... أصبح هذا؟؟
وما هو ذلك الدواء؟؟ ولماذا؟؟...

وبصوت فيه رعشة... مليء بالخوف... مقعم بالحب... أجابت:
— نعم... إنه دواء لولدي سمير... ولكن ذلك لم يستغرق سوى دقائق معدودة...
— دقائق أو ساعات معدودة... إنك لا تلاحظين نفسك عندما تتكلمين... لقت
قلبت لك مراراً: بالآ تحدثني مع السائق... ولكنك لا تسمعين... لا تقدرين
شعور زوجك... لا يهملك كرامتي... لا تراعين خرمة هذه الدار.
— لم كل هذه الثورة وأنا منها براء؟؟.. لقد قلت لك: إنني لم أتكلم معه إلاّ كلمات
مقتضبة لشراء الدواء...

— إنك تحاولين التستر على الأمر... تحاولين خداعي!! وفي كل مرة لك حجة مقنعة!!

— لماذا أخدعك؟.. أنت تعرف أنني أنفذ كل ما تطلبه مني برضي وطيبة خاطر لأنني أحبك... لأنك كل شيء في حياتي... وأنت أعلى عندي من أمي وولدي...

— كلام... كلام ترددينه على مسامعي كل مرة...

— وسأظل أردده دوماً لأنه نابع من قلبي... إن حبك ملك عليّ عقلي وروحي وقلبي... والمرأة دون عقل وقلب ودون روح لا تساوي شيئاً... فأنا أحس أنك وأنا قلبان متحدان وجسدان منفصلان...

بالله كف عن هذا الهراء والسخف الذي تنوهمه في كل مرة...

— أنا لا أتوهم... بل إن قلبي يحدثني بأنك تحفين عني سراً... فما هو هذا السر؟... قل لي... اعترفي.

— أنت تعرفني... وتعرف شعوري نحوك... فلا تدع الوهم يقتلك أو الغيرة تأسرك...

وتشجعت قليلاً بعد أن استردت أنفاسها... وتيسمت له في رقة وعطف... ومالت على رأسه تقبله...

وعندما لامست شفتاها جبينه... أحس بحرارة حبا له... ففحق قلبه، ورفقت جوارحه، ولانت عريكته... فأخذها بين ذراعيه ونظر إلى صفاء وجهها، وعمق عينها:

— أواه يا ليلي... كم أحبك حباً عارماً... الله يعلم مدى صدقه ومدى تأثيره على نفسي... إن حبك يعمي فؤادي ويجعلني أغار عليك من نسمة الريح إذا لامست وجنتيك، إنني أشك في كل نظرة فاحصة تلقى على وجهي مخافة أن تجردني وتعري شخصيتي فينكشف للناظر إليّ أو المحقق فيّ فتصبح نفسي شفاقة تعكس صورتك المطبوعة في فؤادي... المرسومة على أضلعي... المنقوشة في دمي.

وغمض عينيه وخذه يلامس شعرها الذهبي الناعم... وازدادت التصاقاً به...

وشعرت بدفع صدره... وأطربها وجيب قلبه... وسرعة دقاته المنتظمة...
فلقد أحبها من أول لقاء جمعها... ووجد فيها الزوجة المنشودة التي عقد عليها
آماله... فكرس لها حياته وأخلص لها وتفانى في حبها....
حلوة... هادئة... وادعة... كريمة... مثقفة... رقيقة المشاعر مرهفة الحس...
أصلها كريم... ونبتها سليم... لم تؤثر فيها الماديات ولم تبهرها عيشة الترف والنعيم فلم
تغير من طباعها وخصالها الحميدة...
وضمته في حنان زائد... فحببها نحوه بشدة... وأخذ يخاطب نفسه: «تري!! إلى
متى سيظل الشك يلاحقني و يعذبني؟؟؟ إلى متى ستعصف بي الغيرة وتقض
منصبي وتعكر صفوح حياتي؟؟
ألا أستطيع أن أخلص من هذا الداء؟؟ ألا من فرج أو وسيلة تقتلع مني جذور
هذا المرض؟؟.. ألا أستطيع أن أسيطر على نفسي وأن أبعد الوسواس عن أفكاري؟؟
رحماك ربي!!! ما ذنب هذه المسكينة أصب عليها غضبي وأبدل زهرة أيامها أشواكاً
وهجتها تعاسة وسعادتها شقاء؟؟؟!!!

ألا يكفي العذاب النفسي الذي أعيشه بعد أن سحقتني بذور الشك وأعماني
الغضب فطردت أخي الذي ربته ورعيت في بيتي وأوجعت زوجتي ضرباً...
فاستحققت بذلك غضب أمي وتعذيب ضميري!!! أواه ربي رحاك... رحاك؟..
واسترخت أعصابه قليلاً عندما قفز ابنه إلى صدره... فضمه إليه، وسكب حنانه في
قبلة طبعها على خده... وانفلت الغلام من بين يديه يجري... فقام وراءه يحاول
مسكه... ووقعت عيناه على بقايا سيجارة مطفأة... فتسمرت قدماه... وارتعشت
يداه... وتحجرت مقلتاه... واندفع نحو زوجته يسكها بقوة وقسوة وكلتا يديه تهزها
هزاً... وتناثرت الكلمات من فمه وهو لا يعي ما يقول... وهي لا تفهم شيئاً مما يجري
حولها سوى الرعب الذي تملكها، والخوف الذي ملأها... «سيجارة من هذه؟؟»
صاح فيها صيحة جوهرية... انعقد لسانها ولم تدر ماذا تجيب؟... وحمل يداً غليظة
وأوقع كفه المليء على خدها... وأمسك شعرها يشده إليه بعنف... وأوقعها على
الأرض وانهال عليها ركلاً حتى لم تعد تستطيع الحراك... وعندما أفاقت قليلاً شعرت

بالآلام شديدة وحاولت النهوض... فددت يدها إليه كي يساعدها على الوقوف وفي ثورة عارمة وهياج جنوني انفجر قائلاً:
— لا... لا... أنا لا أمد يدي إليك... أنا لا ألامس يدا خائنة... خائنة... أنت طالق... طالق... طا...

وحملت المسكينة فيه... ولم تدر ماذا تفعل؟.. ونظرت إلى بقايا السجارة في ذل وانكسار... وانخرطت في بكاء حار... ووقف سمير بين أبيه وأمه في ترقب وذعر، وفغر فاه حيرة واضطراباً عندما رأى أمه في حالة غيبوبة تشبه الموت وصوت أبيه يجلجل في البيت وسيل من الشتاء ينهار من فمه... وأخذ يبكي بكاءً حاراً... ولم يجزؤ أحد من الخدم أن يخطو خطوة لمساعدة الأم أو إنقاذ الطفل... وتلفت طارق يمينه ويسرة، ونظر إلى زوجته وهي ملقاة على الأرض وبقع من دم تلتفح ملابسها... وحاول أن يمسك ولده إلا أنه هرب منه... وفي كل مرة تصدم عيناه بقايا السجارة يحس بغليان الدم في عروقه وشواظ من نار يكوئ ضلوعه فيرتفع صراخه وتغلظ ألفاظه... وأخذ يصيح في الخدم مهتداً... خذوها... احملوها قبل أن أقضي عليها... خذوا كل ما في البيت لا تتركوا شيئاً من آثارها يذكّرني بها... خذوا كل شيء... واتركوا لي هذه السجارة...

وعندما هدأت العاصفة... وسكنت نفسه، وارتخت أعصابه... تلفت حوله فلم يسمع إلا دقات قلبه ووسوسة يقظاته... ونادى زوجته... فلم يلق جواباً... ودق جرس الخدم... فلم يلب النداء أحد، ووقف مذعوراً... وتنبه إلى أن البيت قد خلا إلا منه... وأنه قد... وتوقف قليلاً ليسترجع ما دار بينه وبين زوجته... وصعقته الكلمات التي أنهى بها حياته مع رفيقة دربه وحبه وسعادته... وتذكر ابنه الذي ارتسمت صورة الخوف على وجهه وكأن ريشة فنّان أبدعها... فانطبعت في مخيلته... وأحس بالاختناق... وتصيب جبينه عرقاً... وتحسس صدره وسقطت يده في جيبه بحثاً عن منديل فارتطمت بشيء قاس... وبحركة لاشعورية أخرج من جيبه «علبة سجائر»...

ووقعت عيناه على بقايا السيجارة وهو مازال ممسكاً بالسجائر في يده... وفجأة
تذكر الموقف والظروف الصعبة التي مرت عليه صباح اليوم التي اضطرته إلى التفكير في
إشعال سيجارة لينفث دخانها ويطرد بها همومه وأن يشتري سجائر لأول مرة...
وانهار على مقعده... وسحابة داكنة سوداء أمام ناظريه وما لبث أن أغشى عليه.

* * *

ضوء القمر



ضوء القمر

- انتصبت قامته، وأخذ يصلح من هندامه الأنيق وهو يستمع في أدب جم إلى تعليمات سيده:
- أريدك أن تكون هنا بعد صلاة العصر — متصلاً — لدي موعد هام.
 - كما تريد يا عمي... سأكون هنا إن شاء الله.
 - شكراً يا عامر.

وخطا الشيخ صالح صوب البيت ويده في يد صديقه الأستاذ عبد الكريم قائلاً: إن عامر هذا، شاب طيب، عنده نخوة وشهامة كما أنه جيّد في قيادته للسيارة، وطوال هذه السنين الثماني التي عمل فيها عندنا لم يرتكب حادثة ولله الحمد.

وأخذ عامر السيارة إلى القراج، وأغلق بابه خلفه واتّجه إلى الغرفة المخصصة له... تمتنى لو يستريح قليلاً ثم يرتدي لباس الشغل، ليكشف على ذلك الصوت الغريب الذي سمعه في ماكينة السيارة... كان لا يحب أن يختلّ صوت الموتور أو تختلف حركته التي تعود عليها، فهو يؤمن أن الإنسان لا بد أن يخلص لعمله ويتقنه حتى يبارك الله له فيه، كما كان يعتقد أن الخلل الصغير يقود إلى كبير، والكبير يؤذي إلى خراب عام...

كان عامر في مقتبل العمر، قدمت عائلته من البادية المجاورة وعاش وتطبع بطباع المدينة، وإن كان فاته ركب التعليم فإن ثقافته وإمامه بسبل الحياة وضربها طبعته بكثير من المزايا الحميدة، وأكسبته التجارب أخلاقاً فاضلة وعادات حسنة.

لم ينتقص عمله كسائق من نفسه، ولم يضعف من شخصيته أمام الآخرين . وكانت له نظرة فاحصة للناس، وميزان خاص ومعيّار معيّن يقيّم به الآخرين، وكثيراً ما تحدث بينه وبين نفسه عن الأشخاص الذين عمل معهم، أو قابلهم، أو اختلط بهم، حكم عليهم أو حكم لهم، انتقدهم... سحق عليهم... نقم منهم ولكنه كان لا يبدي تلك المشاعر أو يكشفها لأحد بل يحتفظ بها لنفسه، وكثيراً ما آذته تلك الأحاسيس، ولكنه سرعان ما يجد لها سبيلاً إلى التفلسف.

وكانت نظيرته إلى الحياة لا تقوم على ركيزة معيّنة، فهو ساخط أحياناً، راض ومقتنع بعض الوقت، متفائل حيناً، ومتشائم أكثر الأيام. كان في حياته نوع من الغموض لم يعرف كنهه... كما كانت هناك عقد دفينه لم يستطع سبر غورها أو التوصل إلى مسبباتها، فهو إن صحب سيده معه انكمش في مقعده وركّز حواسه وانتباهه على قيادة السيارة، حتى إذا ما دار بينها حديث طال أو قصر لا تنبث شفتاه إلا عن مقتضب الكلام.

- سأله عمّه مرة...
- أنت متزوج يا عامر؟
- لا... سيدي...
- ألم تتزوج من قبل؟
- أبداً...
- ألا تفكر في الزواج؟
- مطلقاً...
- ألا تريد إنسانة تعيش معك، تشارك حياتك، وتقاسمك معيشتك، وتنجب لك أولاداً وبنات وذرية صالحة...
- (بعد تفكير) لم يحن الوقت بعد. وكل شيء والنصيب.

غير أن تلك الشخصية المقتضبة تتحوّل إلى أخرى مريحة ومنفرجة إذا ما صحبتها امرأة أو اثنتان، ويصبح ذلك الرجل الذي يزن الكلام مع سيدة بميزان الذهب ثنائياً مع السيدات اللاتي كثيراً ما يملأن سيارته... كان ينطلق مع صاحبات البيت في

الحديث في أدب واحترام، وكان يتناسب مع الزائرات والصدقات في حدود اللياقة والذوق، وهو في كل ذلك حر يص على ألا يبدي لهن ما يؤذيهن، ولا أن يتكلم بكلام زائد فففاض عما يسألنه عنه... وكثر يستزددن من الحديث معه والاستماع إليه... فهو يعرف كيف يملك زمام الحديث، وكيف يوجهه في صورة تستحوذ على فضولهن حتى يغدو هو المتكلم الوحيد بين ثلاث أو أربع نسوة... قالت له واحدة منهن:

- من أين لك هذا القلب الخالي، والروح المرحّة؟؟..
- (أجابها والابتسامة تتدلّى من شفّتيه...) لأنّي لم أتزوج بعد!!!.
- وهل إذا تزوجت ستفقد تلك الروح الحلوة؟؟..
- بكل تأكيد سيدتي... إن الطائر يغرد طالما هو حر طليق... يقفز من شجرة إلى أخرى، ويرتاد المكان الذي يريده، أما إذا أطيقت عليه الأيدي وظل حبيساً في قفصه فإن الكتابة تختم عليه وربّما يموت كمداً...
- وهل الزواج سيمنعك من الحرية، أو الغناء — على حد رأيك؟؟؟ —.
- الزواج يا سيدتي هو الوسيلة الوحيدة التي تقضي على الرجل وعلى حرّيته ببطء دون ارتكاب جريمة القتل المحرّمة.
- ولكن ألا ترى أنك تخالف الطبيعة البشرية، وما تعودت عليه الخليفة الأبدية؟
- نعم سيدتي... لكل قاعدة شواذ، وأنا الشاذ في هذه القاعدة... (وقاطعته أخرى...)
- ولكن ربما كان هذا بسبب ضعف فيك أو في شخصيتك؟ أو... وسكتت حياءً...
- لا سيدتي... ليس هذا ولا ذاك... ولكّتي مؤمن بالذي قلته، بل وموقن منه...

وصاحت الثالثة من الناحية الخلفية البعيدة:

- ألا تشاق إلى أن يكون لك صبي جميل، أو بنت حلوة تلعب معها، ألا يحزن قلبك لبكائهما، وتدمع عيناك لفراقهما؟
- هذا شعور الضعيف، وأنا لا أريد أن أكون ضعيفاً.
- هذه أنانية. أنت أناني... أنا أناني...

ووافقت أكثر الحاضرات على رأيها... وهز رأسه... وقال فيما بينه وبين نفسه... نعم أناني...

وسكت الجميع عندما أطلت السيارة على شاطئ البحر، وكان الموج يتلاطم عالياً، وكأنه ينفث غيظه في تحدٍّ ظاهر... فصدرت من عامر زفرة حارة وقعت في أذن «سلمى» أكبر بنات الشيخ صالح وكأنها صوت نشاز تخلل عزف سيمفونية راقصة، فوجدت نفسها تندفع في الكلام رغم محاولاتها المتعددة كبح جماح نفسها مخافة أن تكشف نبرات صوتها المرتعشة عما في دخيلة نفسها ومكنون فؤادها:

— هل تحب البحر... أم تخافه؟؟ (وقبل أن يفிக هو من وقع السؤال... وقبل أن يقلت زمام الحديث من يدها... أكملت قائلة) لا يحب البحر إلا عاشق... ولا يخافه إلا من كان يخاف الحب!!! والذي يخاف الحب إماً ذو إحساس متبلد وإما لأنه قد مر بتجربة مرة تحطمت على صخرة الحب الجارف أسهمه... (وكان سهماً انغرس في صدره فلم يعد يحس إلا بالألم تعصره، ودماء الحقيقة المسفوحة تملأ حدقتيه حتى خيل إليه أن موج البحر قد اصطبغ باللون القاني... فتحوّلت زرقاة البحر إلى بساط أحمر...) وكان تلك الفتاة «سلمى» قد أحسّت بالإحساس الخاص بالأنثى، أنّها أصابت منه مقتللاً فأضافت بسرعة:

— إن في البحر أسراراً عميقة، والذي يحب البحر يحبه لأسراره وكذلك الذي يخاف البحر... يخاف أن يغضب منه أو يثور عليه فيكشف عن الأسرار التي يودعها فيه...

— (وجاء صوت عامر خافتاً بطيئاً على غير عادته... وكأنه آت من قاع بئر عميقة...) إنني أحب البحر، وأعشق زرقته، وأهيم بصمته، وأنس إلى سكونه... ففيه أسرار الكون، وماهية الخلود...

— ولكنك تخاف من ثورته، أليس كذلك؟؟

— إن البحر لا يثور إلا إذا استفزته الرياح، فالبحر هادي ساكن بطبعه والرياح تهب وتعصف... وتزجج فتعكر ذلك الهدوء... والشجرة الوارفة الظلال، الثابت أصلها المتراقص فرعها... تقتلعها الرياح... وتفسد غرسها... ونحن يا سيدتي مخلوقات ضعيفة أمام هذه الخوارق الطبيعية...

- أجابت سلمى ، وقد اشتدت ثورتها « لقد قيل : إن المرأة كالبحر... مهما حاولت الغوص في أعماقها فلن تصل إلى قرار وهذا سر المرأة... فهل تراك تخشى المرأة وتضرب عن الزواج لأنك لا تستطيع التعرف على أسرارها؟ »
- سيدتي... إن المرأة أضعف المخلوقات الكونية... وهي بالنسبة لي... كالطريق المعبد الذي يمتد أمامي بلا نهاية... علي أن أقود سيارتي بحذر، وأن أوقف حواسي ، وأركز انتباهي لأقطعه .
- ولكن قد يكون ذلك الطريق مخوفاً بالأخطار.
- نعم... قد يكون... لذلك وجب علي الحرص ، حتى لا أؤذي نفسي أو أؤذي غيري...
- هل يعني هذا أنك لن تحب في حياتك أبداً؟؟
- لم أفكر في ذلك...
- هل يوجد على وجه البسيطة من ينظر إلى الحب الوجداني عن طريق عقله فيدعي أنه يفكر أو لا يفكر؟ إن الحب لا ينتظر الموافقة بل إن طريقته الهجوم على القلب... وعندها يملأ حياة الإنسان سواء أراد أم لم يرد ، ففكر أم لم يفكر...
- هذا جائر... سيدتي ولكن...
- ولكن... قل : إنك إنسان متبلد الحس ، فاقد الشعور ، أو إنك لم تجد المرأة التي تستطيع أن تتسلل إلى قلبك فتفتحه... (قالت ذلك وكأنها تنفض عن ظهرها حملاً أثقل كاهلها... وأناخ قوتها).

ومرت لحظة صمت رهيب... أحس هوفيها بأنه على وشك الانهيار فلأول مرة في حياته يواجه موقفاً كهذا ، ولأول مرة تطرق مسامعه حقائق لم يكتشفها من قبل ، ومأمم عينيته شريط طويل... فأيامه الأولى وهو طفل غريب كانت جرباء لا حنان فيها ولا عطف ، فقد أمته في الشهور الأولى لولادته ، فسقاه أبوه لبن النعاج ، ورعاه جده ورباه كما يربي بقية الخرفان... وما لبث أن ساقته قدماه إلى المراعي يرعى قطعاً من الماشية تحت شمس محرقة. ولهب حار، وشب وفي أظفاره صلف البادية، وخشونة الصحراء... لم ير امرأة، ولم يختلط بأنثى صغيراً، أو يافعاً... حتى شب وفي سلسلة حياته حلقة

ضائعة مفقودة... وشغلته الحياة بسبلها وتعارضها وعركته الأيام، وضرسته التجارب... فكان ذلك الفحل الجسور الذي لا يهاب زوبعة، ولا يخاف عاصفة... ودفعه طموحه إلى أن يرحل عن البادية، ويبعد عن حلب الإبل، وروث الماشية، وأن ينزح إلى المدينة... فلقي ما لقي من قواعد الآداب العامة وأخلاق المدينة، وعانى ما عانى من الفوارق الطبقيّة.. ولم يستسلم، فقد صمّم أن يعيش... سلاحه الصبر، وهدفه العيش بكرامة، ووسيلته في كل ذلك حسن المعاملة وأدب السلوك...

لم يكن للمرأة دور في حياته، لذلك لم يفكر فيها، ولم يرق قلبه لها يوماً، إلا أنه كان يجد نفسه مندفعاً إليها، ولعل شيئاً ما داخل نفسه يوقظ أحاسيسه من غير أن يدرك كنهه أو يعرف سره لذلك فهو ينجذب إليها دونما وعي، فيتحرر لسانه وينطلق في الكلام... وعندما هبط الظلام... وأطبق النعاس جفنيه... جاءه صوت سلمى قوياً وكأنه ناقوس يدق عالم ماضيه السحيق... وأهبت أحاسيسه تلك العيون النجلاء التي كانت تصوّب نحوه أسهمها... إنها نفس العيون التي يراها كل مرة... ما الذي طرأ عليها؟... لا بل ما الذي طرأ عليه هو؟؟... ولم لم يلحظ من قبل البريق الذي شغ منها؟؟

وازداد الليل كآبة وصمتاً... وازدادت الوحشة التي شعر بها... وتقلب في فراشه بعد أن شد غطاءه على وجهه وكأنه يبعد عن مخيلته صورتها... واستسلم للنوم... إلا أن صوتها تسلل إليه مرة أخرى... وأخذ يستعيد كل كلمة قالتها. «أحسّاً تعني ذلك؟؟» وهل أنا فاقد الشعور. متبلد الحس؟ ما هو الشعور؟ ما هو الحس؟؟ كلمات جوفاء... لا معنى لها تصدر من فتاة صغيرة... تتلهى بها... تتسلّى بترديدها كما يتسلّى الأطفال بلعبة جميلة...

وصممت أفكاره قليلاً وكأنها تستريح... وانقلب على جنبه الآخر... وأحس فجأة وكأن مطرقة ثقيلة هوت على رأسه عندما تذكّر قولها: «لم تجد المرأة التي تستطيع أن تتسلل إلى قلبك...».

امرأة... وتوقف تفكيره بعد أن ردد في نفسه هذه الكلمة مرات ومرات... «ما دخل المرأة في حياتي؟... مالي أنا وللنساء؟ ألسنت أعيش حياة هادئة وادعة لا ينقصها شيء؟؟»

وتعددت الصور أمامه، وتلاحقت الأسئلة في ذهنه «هل أنا حقاً شاذ في تفكيري في حياتي؟؟ لماذا أختلف عن جميع الناس؟ لا... بل لماذا يربط الرجال مصيرهم مع امرأة؟ ما هو دورها في حياتهم؟؟ هل هي الحاجة إلى إنجاب الأطفال؟ وماذا أصنع بالأطفال؟؟ ماذا... ماذا؟؟»

وهب من فراشه وكأن قبضة حديدية أمسكت بعنقه فكتمت أنفاسه، وخرج يستنشق هواءً نقيًا.

وعندما توسط حديقة البيت هبت نسمة باردة على وجهه فاستلقى على الحشيش الأخضر المزروع، ولحت عيناه القمر الفضي... فأغمض عينيه، وداعب جفنه النوم، ورجع بخياله إلى الوراء... إلى الماضي البعيد... أيام كان يفتersh الرمال تحت ضوء قمر كهذا وصوت الأغنام يداعب أذنيه وكأنها موسيقى تعزف ألحاناً عذبة... عاوده حنين الصبا، واقتثرغره عن ابتسامة مشرقة وضياء وراح في سبات عميق.

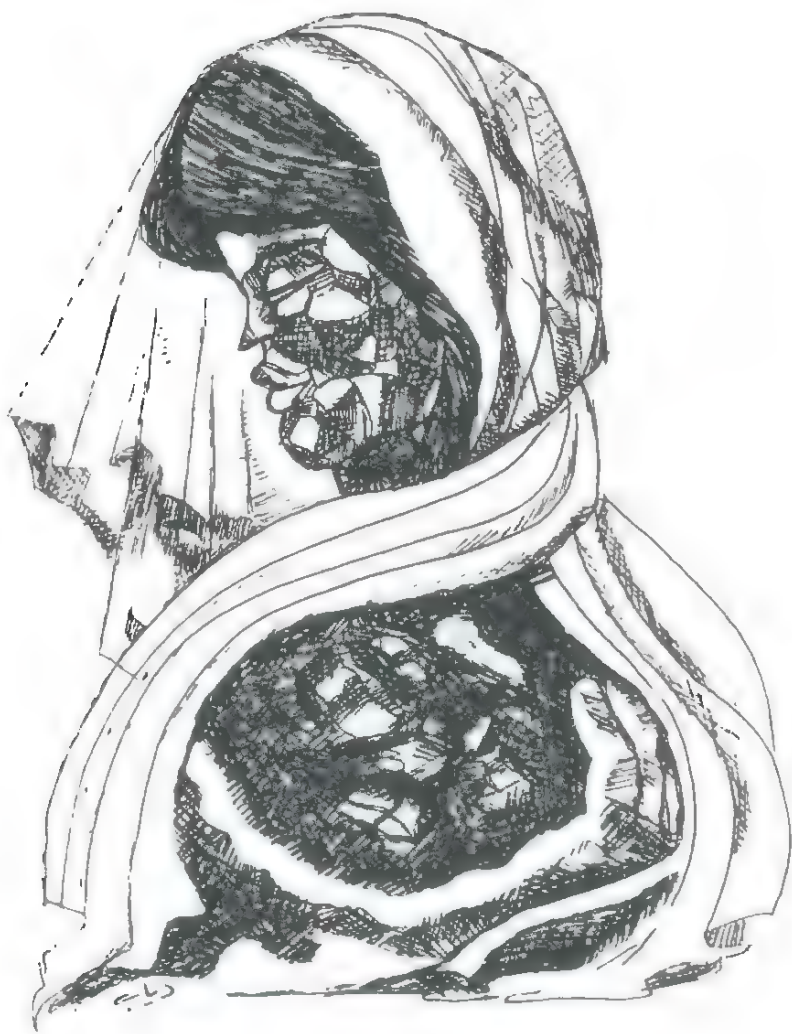
وعندما صحا تحت حرارة الشمس... أحسّ بنشاط يدب في أوصاله... وقوة خارجية لم يعرفها منذ أن وطأت قدماه أرض المدينة...

وقام يبحث عن أشياءه الخاصة، وهو يودّع العائلة الكريمة التي قضى معها فترة من عمره... وحمل معه سره، وقفل راجعاً إلى حيث تصدح أنغام الموسيقى... إلى الطبيعة الأم...

ولم تنفع محاولات الشيخ صالح في إقناعه بالبقاء...

* * *

آخرڪو بابه يادشيش



آخره بايه يادشيش

... وعندما هبط الظلام ولفّ البيت سواد عاتم، أحاطت بها الكآبة القاتمة التي عرفت فيها الشدة والقسوة. وعصرت الوحدة ما تبقى فيها من أمل، وانفلتت من لسانها متمتات طالما رددتها في صمت منكسر، وذل ملحوظ...

— متى ربّنا يتوب عليه، ويخلصني من شرها؟؟.

وطافت على أولادها الصغار، وأدارت محاجر ميتة في أرجاء الغرفة، وكأنها ترى بشاعتها لأول مرة، وكأن أولادها المستلقين في كل ركن، دمي تبعثرت من طفل غريب أفسده تدليل أبويه فنثر كل ألعابه أمامه في حماقة وكبرياء...

هذا الولد «سليم» يرقد في ثوب ملطخ قذر، وفي أعلى الثوب تمزيق ملحوظ لا بد أن «ولد الجيران» شده منه، أو مسكه من رقبته كالعادة — ومحركة لا إرادية — تحسست رقبة ابنها، وصدمت عينها في التور الخافت آثار خناق وخدشات.

ومررت أصابعها في شعر ابنتها «زينب» فتعقدت جدائلها والتفت حول أصبعها، وتذكرت أنها لم تمشط لها منذ أسبوع عندما طلبت من زوجها أن يحضر لها «زيت نارجيل» لتدهن به شعرها الأجدع، إلا أنه لم يوف بوعده كعادته مع جميع طلباتها، فحبست لسانها وتمسكت بالصمت الذي تجد فيه خير علاج.

ونظرت إلى طفلها الرضيع نظرات ملؤها الحنان والعطف والشفقة، والصفرة التي تكسو وجهها الصغير الملائكي تنذر بها بإحساس عجيب، ووضعت يدها بحركة لا إرادية على ثديها كأنها تعصره فلم تجد فيه حليياً، ورقعت بصرها في صمت إلى السماء كأنها

تستجدي الرحمة لطفلتها البريئة التي لم تجد شيئاً تتغذى به... وقامت تبحث عن لقمة تسد بها جوعها الذي أخذ يشتد في عوائه، ففرت من عينيها الذابتين دمعات حزينة وتنهدت في حزن عميق:

— الله يتوب على أبوكم، عشان نقدر نشوفه ونقوله على اللي نبغاه.
(ونظرت في الأفق البعيد، وكأنها تحلم بلقاء حبيب) قرص عيش ووصلة جبنة
— على الأقل — يارب... يارب أنت أعلم بحالي وحال العيال... وانكفأت تبكي...

وعندما أحست بخطوات زوجها تقترب، اقترب من ذهنها صوته وهو يردد «لازمته» التي لا تفارقه: «آخرك بيايه يا ديشيش» تراها «بياضه» الليلة... والآ «قفله» والآ زي عوايدها رايحه تقول لي «جلا» من بدري.

وسرت في جسدها قشعريرة باردة رغم حرارة الجو ورطوبة المكان، وصكت أذنيها ضربات يده القاسية على «طبلية» الطعام والتي يستعملها زوجها في لعبة «الضومنة» عندما يجبرها على اللعب معه إذا تأخر جارهم الشيخ سالم في المجيء كالمعتاد كل ليلة... «يا وليه... صكّه واحدة آخذك فيها «صايم».

كانت جميلة قد تزوجت حمدان من عشر سنوات خلت، رضيت به زوجاً عندما زفت إليه في يوم وليلة دون علمها، وعندما تعرفت عليه وجدته رجلاً في الأربعين من عمره يزحف الشيب على رأسه، يعمل بحرناره نجاراً في دكان تحت البيت القديم الذي ورثه عن أبيه... وفي المساء يغلق الدكان ليستقبل صاحبه الشيخ سالم ويبدأ الاثنان في لعب الضومنة حتى ساعة متأخرة من الليل...

أصبحت حياتها رتيبة، مملة، زوجها لا يسمح لها بالخروج من البيت، وأعمال المنزل لا تستغرق من وقتها سوى ساعة على الأكثر، فالغرفة الكبيرة التي تعيش فيها الأسرة، وغرفة أخرى صغيرة، والمبيت والخارجة والبسطوح الفوقاني هو كل همها وحياتها، ليس عندها ما يشغلها، فكم تمت أن تكون مثل بقية أخواتها اللاتي يعشن في بيت كبير، حيث الغرف الواسعة والخدم والطبخ اليومي، والملابس الوفيرة والأثاث الفاخر...

وعندما حملت بطفلها الأول أحسّت بدبيب السعادة يغمرها، غير أن كلمات زوجها عند رؤيته الطفل لأول وهلة والتي مازالت تذكرها «ها... جيتي لنا دوباره، ولا سليم» جعلت منها كتلة محظمة من أعصاب، وعرفت بعدها أن ذلك الطفل سوف لا يغير من مشاعر زوجها نحوها أو نحو بيتها... فقد كان فرحه بالولد منصباً على تسميته «سليم» حجر الضومنة الذي يتفاعل به في اللعب.

عرفت جميلة أن مصيرها قد انتهى عندما ارتبطت حياتها بهذا الزوج الذي لا يغادر بيته ودكانه إلا يوم الجمعة من كل أسبوع عندما يذهب إلى الحلقة في الصباح ليلتقط بعض الخضار ثم يذهب إلى صلاة الجمعة يعود بعدها مسرعاً إلى البيت متشوقاً إلى لعبة الضومنة مع جاره الشيخ سالم.

وعندما توسّط رجلها الغرفة صحت من أحلامها المتبعثرة على صوته وهو يسأل:

- ها... يا ولية... عندك شيء نأكله... والآ زي العادة «مقفلة في وشك».
- يا حسرتي يا أبو سليم... منين يا عيني أجيب لك شيء تملي به بطنك... كان الأولاد أبدي منك... هو أنت راضي تبطل لعب الهباب دا وتصير زي الأزواج التانيين...

- بدينا يا ختي في الأسطوانة نفسها بدينا... إنتي ما عندك كلام غير هادا أبداً... يا ولية... إذا ما لقيتي شي تهرجي فيه انكنمي أحسن لك...
- وأنا رايحه أفضل مكتومة كدا لحد متى؟؟. ها... (وكأن وحشاً كاسراً استيقظ داخلها فجأة... فوضعت يدها على جانبي وسطها ووقفت أمامه وكأنها تتحدّاه...)

قوللي يا سيدي انكنم لمتي؟؟.. حتى أشوف البنت الصغيرة تموت من الجوع والمرض زي ما ماتت أختها قبلها.

- جينا لحكاية الموت تاني... ما قلت لك ألف مرة الموت بيد الله يا ولية... هؤا أعطى وهؤا أخذ... يعني كنتي إنتي تقدري تردي المكتوب.
- ما أحد يقدر يرد المكتوب... والآ ما كان رضيت أجلس عندك يوم واحد... لكن لو كنت رجال زي بقية الرجال كنت قدرت تعشي أولادك... وتكسبهم وتشوف حالتنا كيف...

- يا وليّة بلاش نكد في هادا الليل... طيب... وآخرتها معاكي إيه؟؟ تبغي جازنا الشيخ سالم يسمعني أزرق معاك يحسبني مِثْعَكْنِ من القلب... ما كفاية نكد من الصبح لدحين... أنا اتصَبَّحْتُ بِوَش مِين اليوم... المنشار كان راح يا كل يَكدي... والشيخ سالم عمره ما يحلم انه يقفلها علي مرتين في ليلة واحدة... طيب داأنا بألعب ضومنة خمسة وعشرين سنة... ما في أحد قدر يقفلها علي ويا كلني أكل... ونجي إنتي في النهاية وتفتحي لي حلقك... انْسَدِّي يا وليّة والّا أخليها خلّ عليكى...
- تخليها خلّ... تخليها شرش أنا ماني منسدة ولا راح أسكت لك بعد اليوم... ياتصحى وتفوق زي الأوامم... يا...
- وكمان صرتي تهددي يا وش النحس... انتي فالحة في إيه غير الزعيق والنكد...
- أنا وش النحس أنا... و... (ولم تستطع أن تكمل كلماتها التي وقفت في حلقها وخنقتها العبرات... وجرت إلى طفلتها الرضيع تسكت من صياحها الذي أخذ يشتد...)

وحمل حمدان فراشه وصعد إلى السطوح لينام تاركاً وراءه صبية يصيحون ويتضرعون جوعاً وحاولت جميلة أن تهدأ بعد أن أسكتت أولادها... غير أن كلمات زوجها أخذت ترن في أذنيها... «وش النحس»... «وش النحس»... وبكت كما لم تبك من قبل... بحرقه، ومرارة ويأس... وملاً الحقد قلبها على حظها الذي أوقعها في زوج كهذا... وبكت على نفسها عندما تذكرت أنها أقل أخواتها حظاً وأكثرهن دمامة... وبكت على طفولتها المعذبة عندما ماتت أمها بعد أن تركت لها أختين صغيرتين وكان عليها أن ترعاهما وأن تسهر على راحتها... وبكت على حالها عندما كانت تلقى من والدها القسوة والتعذيب... وتحسست ندبة كبيرة على جبينها وتذكرت كيف ضربها بعصاه التي يتوكأ عليها لأنها لم تلبّ رغبة أختها الصغرى المدللة عنده... وكفّت عن البكاء... وأخذ حقدّها يملأ أرجاء نفسها عندما مرّ أمام عينها شريط الذكريات الدامية...

لم يوافق والدها على زواجها من أول رجل تقدم لها ... كان عليها أن ترعى أختها بعدها ... فتزوج من أختها الثانية وهي تعيش الآن عيشة هادئة مترفة ... ولم تستطع أن تناقش أباهما في أمر زواج أختها الصغرى لأنها ابنته المحببة إلى نفسه ... حتى إذا خلا البيت إلا منها سئم الحياة معها فأسرع إلى الزواج من امرأة أخرى ... وكأنه أراد التخلص منها فزوجه إلى هذا الزوج النجار الذي لا يملك في حياته سوى المتشار والمطرقة وعلبة الضومنة ... وداومت نوبة أخرى من البكاء ... « هذا حظي ... وهذه دنياي ... حياة ملؤها التعب والحزن ... زوج تعيش فقير بائس ... وأطفال مرضى جياع ... وجسمي ينهش المرض ... أواه ربي ... هل أطمع في خلاصي من هذه الدنيا؟؟ ... هل ألبأ إلى إحدى أخواتي؟؟ ... هل أعود إلى أبي وقسوته؟؟ ... وأطفالي من يرعاهم؟؟ ... من سيقبل أن يحتضنهم أو أن يقبل رجلاً كهذا؟؟ ... » ورفعت رأسها وهي تسمع صوت المؤذن « الله أكبر ... الله أكبر » ... وسمعت صرخة الجوع تعوي في بطنها ...

وسمعت أقدام زوجها تتجه نحو الغرفة وهو يردد:

« أصبحنا وأصبح الملك لله ... يارب على بابك يا كريم ... يارب بيضها في وجهنا يا كريم ... » وعندما لمح زوجته قابضة في ركن وعينها ممتلئة بالدموع ... وآثار السهر والتعب بادية على وجهها وطفلتها في حضنها ... رق قلبه واقترب منها ومسح شعرها بكفه وهو يقول: « يا ولية ... احمدي ربك على كل حال ... الدنيا أرزاق ... وهادا حظنا وهادا نصيبنا ... وحالنا أحسن من غيرنا ... بكره تفرج ... واللي خلقنا ما ينسانا ... » وتوضأ ... وشرب كأساً من الماء ... واتجه لصلاة الفجر ... وفي الطريق ... ردّد في نفسه « يارب ... بزبون يبغاله شغلة جامدة ... روشن ... والآ طاقة ... والآ باب مخلوع ... المهم شغلة تحيب لنا كم قرش نصرّفها على العيال ... » وتحسّس حزامه فوجد التّقود التي اذخرها ليوم الجمعة .

وعاد إلى البيت محمّلاً بالخضرة والفاكهة والخبز ... وغطت وجهه ابتسامة عريضة عندما رأى الأولاد يتناثشون الطعام وأتهم مشغولة عنه بالطبخ ...

وتذكر الشيخ سالم فقال في نفسه: «إن ما خلّيت الدشيش يموت في يدك يا سالم... لا تسميني حمدان... طيب عمرك كلّه وانتا ما تعرف آخره الدشيش يايه... كيف... كيف قفلتها عليّ البارح مرتين؟؟»
«ما أدري... سبحانه يوضع سرّه في أضعف خلقه».

* * *

حوار



حوار

رمى « الكتاب » جانباً، وتمظى بعد جلسة فكرية مع صفحات فلسفية استغرقت أمسية ذلك النهار المتباطيء، وتمنى لو أنه يخرج خارج الغرفة لاستنشاق هواء نقي عليل، ولكنه سرعان ما تذكر لفتح السموم فآثر البقاء في الغرفة المبردة، وأحس أنه متضايق من نفسه، متشاغل بالأفكار الفلسفية التي كان يقرأها، وشعر برغبة في الكلام... في الحديث حتى ولو مع نفسه... وبدأ يسترجع ما كان يقرأه... وفجأة قفز إلى ذهنه سؤال عريض...

- ما هو رأيك في نظرية فرويد؟
- آه... لا أستطيع أن أحكم عليها... فلم أنته منها بعد... ولكن يتبين لي أنها تمثل بعض الواقع في حياة الإنسان... وعلى الأخص مرحلة المراهقة، وفورة الشباب...
- ولكن فرويد لم يخصص مرحلة بعينها، بل إنه أرجع التصرف والسلوك الإنساني إلى الجنس منذ بداية الطفولة...
- نعم... ولكن هل علينا أن نصدق كل ما قاله فرويد في فلسفته؟؟.

وأحس بصداع أو ببادرة صداع، فتوقف عن مساءلة نفسه... وقام يمشي في أرجاء البيت... حاول أن يعد لنفسه قدحاً من الشاي... أدار جهاز الموسيقى لعلها تخفف من وحدته وتزيل عن نفسه الكآبة التي أخذت تتسلل إليه... ولكن دون جدوى.

وتشاقلت الدقائق أمامه تمرّ وكأنها مشدودة إلى سلاسل متينة ووقعت عيناه على التليفون... وخطر له أن يكلم صديقه عبد الرحمن السالمي، فهو لم يره منذ أيام. وبحركة آلية، وفكر شارد أدار القرص وليس في ذهنه أي فكرة أو حديث، سوى رغبته في التخلص من الضيق الذي لفته.

وبصوت فيه رعشة طفولية، وضحكة موسيقية تسربت إلى أذنيه جعلته يعتدل في جلسته وكأنه جندي صدرت إليه الأوامر بالانضباط...

— هالوو... أهذا أنت!!! دائماً أنت متأخر في مواعيدك، دائماً تجعلني أنتظر... يروقك أن تتركني مشدودة الأعصاب أنتظر رنين الجرس... وستكرر في كل مرة نفس الكلام... نفس العذر... أليس كذلك؟؟... (ومرت لحظة صمت قصيرة... انعقد فيها لسانه، وتحجرت مقلته، على سماعة التليفون، وعندما همّ بالكلام... كان ذلك الصوت التاعم قد نفذ إلى أذنيه كما تنفذ سكينه حامية في قرص من الزبدة، وتسّلل إلى عروقه... ووصل محطته الأخيرة... إلى القلب، فلم يدر بماذا يجيب...

— لماذا أنت ساكت؟؟ لماذا لا ترد عليّ؟ هل قسوت عليك؟؟ (وبفتور... ودلال... أردفت)... إني آسفة... أنت تعرف كم أنا عصبية ولا أحب الانتظار غير أنني هذه المرة... (وفجأة انفجر صوته وكأن قوة مجهولة أيقظته...)

— سيدتي... إني آسف... يبدو لي أنني أخطأت الرقم الذي أردته... إنك لم تعطيني فرصة لتصحيح ذلك الخطأ... غير أنني أعترف... فلقد كان لرقّة صوتك، ونعمومة كلامك سحر عجيب على نفسي، لم أرد أن أقطعه... هذا من جهة... ومن جهة أخرى... لم أشأ أن أخيب ظنك من أول وهلة وأنت قد طال بك الانتظار... إنه ولا شك قاسي القلب... متحجّر العواطف، متبدّل الإحساس إن كان يعرف أنك تنتظرين مكالمته وهو عنك مشغول... ساعيني سيدتي لتدخلني في ذلك، ولكنتي كما قلت... لم أتمالك نفسي... وأكرر أسفي...

— ولكن من أنت؟؟ ولماذا أدرت فمري... لماذا طلبتني وماذا تريد؟
— ليس مهماً من أنا، وأصدقك القول أنني لم أقصد أن أطلب فمرك بل إنني لا أعرفها الآن، فيما لو حاولت أن أجرب حظي مرة أخرى... لقد أردت أن أكلم

صديقاً لي، ويدولي أنني أخطأت في الرقم ... كنت شارد الذهن، متضيقاً من نفسي، أحسست بكآبة عميقة وحزن شديد، ضقت بالوحدة وضقت بالقراءة... أردت أن أتسلى مع صديقي بالحديث، أردت أن... (ومرّت لحظة صمت...).

— (وجاء صوتها من جديد يهزّ كيانه نفسه) ماذا أردت؟ قل... تكلم إن في حديثك حلاوة لم أعدها، ولك طريقة عجيبة في شدّ الانتباه لقد جعلتني متشوّقة إلى معرفة سبب ضيقك، ومصدر كآبتك... إنّ عندي من الفضول ما يكفي لإزعاجك إن أردت الإجابة.

— ولكن سيدتي... ماذا يفيدك إن عرفت ذلك؟ أنت أيضاً كنت مثلي في ضيق شديد، ربّما تختلف أسبابه ودواعيه.

— نعم كنت في ضيق ولكن...

— ولكن ضيقك مصدره معروف ومعلوم أليس كذلك؟.. كنت تنتظرين مكالمته ما... لا أعرف— ولا أريد أن أعرف— مِنْ مَنْ... أمّا أنا فقد كنت أقرأ في كتاب... في نظرية فلسفية لفرويد لم أوافقه رأيه، وأردت أن أكلم صديقي الذي استعرت منه الكتاب فهو من أنصاره...

— وكنت تريد أن تناقش معه وجهة نظرك أو اختلاف وجهات نظركما أنت والكاتب— أو أنت وصديقك...

— تماماً... ولكنني أجد نفسي الآن و... (سكت...).

— تجد نفسك تناقش أو تتكلم مع شخص مجهول، إنسان لا تعرفه...

— هو كذلك... سيدتي... ولكن... هل لي أن أسأل من أنت؟؟

— وماذا يفيدك إن عرفت... (قالت ذلك وأعقبتها بضحكة صغيرة رنانة أحسّ كأنها تيار كهربائي سرى في عروقه...)

— يبدو أنك سريعة الثأر... ولا تدعين الذين يمضي إلى الغد...

— واحدة بواحدة... و...

— لا تكملني أرجوك... فاقصدت ذلك، ولو كنت أدري أنني سأمضي معك في الحديث وأنا واقع تحت هذا التأثير من الشعور، وأنتك سوف تمضين معي على

نفس الخط، ربما يدفعك شعور آخر قد يكون موازياً إلا أنه يمضي على كل حال... أكنت...؟

— يبدو لي من سياق كلامك أنك إما أن تكون مهندساً، أو فيلسوفاً... فالافتراضات تلعب دوراً كبيراً في كلامك، كما أن لمقاييسك اعتباراً خاصاً لبرهنة ذلك الافتراض أو الوصول إلى نتيجة ترضيك... ولكن حذارياً... (وترددت قليلاً...) حذارياً أستاذ أن تفترض في نفسك أستاذاً في فصل فطريق الإقناع طويل أمامك.

— لست بمهندس... ولا أنا بفيلسوف، ولكني أسعى إلى الوصول إلى الحقيقة، وأرغب في معرفة المجهول دوماً، وأنا أعترف معك أن الطريق أمامي طويل، وكثيراً ما أقع في الخطأ، ولكن يعجبني أن أقع في الخطأ نتيجة للاجتهاد الذي كثيراً ما يكلفني الكثير من الجهد والأرق... من أن أبقى حائراً على فكري، محلقاً فيما وراء الأفق، لا أستطيع أن أرضي رغبة النفس في معرفة المجهول أو أن أسكت صرخة الحقيقة.

— لا... (قالت ذلك بطريقة استعراضية) وربك إنك لفيلسوف ليتني أستطيع أن أسير معك على هذا الخط... فإن الفكر والتفكير مسألتان كثيراً ما حاولت إفناء نفسي فيها... ولكن...

— ولكن هذا... (أجاب في هفة)

— ولكن... نحن النساء لا نهتم كثيراً بذلك... إن جلّ اهتمامنا يتجه نحو أشياء أخرى أكثر تفاهة... أليس كذلك؟؟؟

— أكثر تفاهة!!! ماذا تعني؟؟

— أأنت تعرف؟؟

— نعم.. لست متأكداً!!!

— ولكنك رجل... والرجل لا بد أن يعرف عالم التفاهة الذي تعيش فيه نساء هذا العصر، والذي قبله.

— أنقصدين... عالم الأنوثة... والأزياء وحديث الصديقات...

— وهل تعتقد أن هناك عالماً آخر؟؟؟

- وحتى أنت أيضاً... (وسكت قليلاً، وعندما لم تتكلم... تابع كلامه) لعلك تستغربين إذا قلت لك: إنني أعيش وحيداً... لم أتزوج... لا شيء إلا لأنني تعبت في البحث عن امرأة تستطيع أن تفهمني كرجل، وأن تفهم واجباتها كأنثى... إنني لا أرى عالماً للمرأة سوى بيتها. هو مملكتها... هو أملها... كل حياتها... فإن فقدت الرغبة في بناء البيت فقدت العنصر الأساسي الذي يجعلها امرأة تستحق أن يضحي الرجل من أجلها بحريته «وسكت قليلاً» ثم انفجر في صوت قوي... ماذا تريدون من هذا العالم؟؟ وما الذي يجعل الواحدة منكم تهتم بقضايا الفكر، ومشاكل الإنسان والعصر الحديث؟.. لماذا لا تترك ذلك التيار الصعب يجرف الرجل وحده وتكتفين بالبقاء في الشرفة تطل الواحدة منكم بوجه ضاحك وابتسامة مشرقة على مجرى النهر يدرج أمامه المشاكل والصعاب أمام الرجل فإما أن تجرفه معها، وإما استطاع أن يتغلب عليها أو يفلت منها... ليست لكن قدرة على ذلك، ولا طاقة لكن على العمل الشاق... فأنتن لم تخلقن لذلك... إن في تكوينكن نقصاً فطرياً...
- أنت رجل... وهذا هو منطق الرجل دائماً، لا أريد أن أقول أناثية. فالأناثية طبع فيكم أيها الرجال وليست تطبعاً، تريدون من المرأة أن تبقى في البيت كقطعة الأثاث... خدمة نظيفة لكم... أليس كذلك؟؟ لقد أمضيت من عمري سنوات طويلة أدرس، وأبحث، وأسهر، وأبكي، وأتعب... وصرف أهلي على تعليمي مبالغ كثيرة. لماذا؟؟ لماذا؟؟ قل لي بربك: هل أجلس في البيت لكي أرضي غرور الرجل، أليس عليّ دور أؤديه، ألسن عضواً عاملاً، ألسن نصف المجتمع؟؟ أم تريد أن تكون المرأة عضواً مشلولاً... نصف ميت؟
- ألا يكفي أن تكون المرأة مثقفة ثقافة تؤهلها لأن تكون سيدة بيتها، تعرف كيف تسعد زوجها، وتعرف كيف تربي أطفالها تربية صالحة؟؟؟ تلك هي الثقافة... المطلوبة في المرأة... ذلك هو الهدف الذي يجب أن تسعى إليه...
- حقاً إنك إنسان أناثي... أناثي حتى بعد أن وصلت من التعليم تلك المرحلة التي افترضت أناثيتها أنك مثقف ثقافة عالية... (وسكتت قليلاً) يبدو لي الآن أن أحمد رغم أنه ليس مثقفاً مثلك إلا أنه في نظري أكبر فهو يعرف كيف يمتدح

- أفكاري و يقدرها... إنه لا يترك فرصة إلا و يعبر لي فيها عن تقديره واحترامه لكل حركة أو تصرف أقوم به...
— ومن هو ذلك العبقرى أحمد...
- إنه خطيبي... خطيبي الذي كنت أنتظر مكانته قبل أن يلوح لي صوتك في الأفق.
- معذرة سيدتي... ولكن هل قلت: إنه ليس مثقفاً؟.. إنه إذاً الرجل الذي استأجرته لكي يرضي غرورك كأنتى، لا تقولي: إنك ثرية أيضاً لئلا يتبادر إلى ذهني أنه يطمع في مالك أو مال أبيك من بعد عمر طويل...
— يالك من رجل مغرور... ولكن كيف عرفت أنني؟..
- و يالك من امرأة حمقاء... أتدعين الثقافة والتعليم وترضين برجل لا يملك من مواهب سوى خداعك وتحريك مشاعرك كأنتى؟.. هل تقبلين به زوجاً وهو أقل منك ثقافة لا شيء إلا لكي تشعرين بأنك متفوقة عليه فكرياً ومادياً؟ هل هذه هي المساواة التي تسعين إليها؟؟ هل هذه هي الحقيقة الضالة التي وجدتتها؟؟؟ دعيني أهتئك على عبقريتك... ودعيني أهتئء خطيبك على ثرائك... (وفي انفعال انفجر قائلاً): «وطابت ليلتك.. سيدتي»... وحاول أن يلقي بسماعة التليفون قبل أن يسمع صوتها مرة أخرى قوياً.. مملوءاً بالأنوثة...
- ولكن كيف تعطي لنفسك الحق في الغضب؟.. ومن أين لك أن تثور على واحدة لا تعرفها... ولا تعرفك؟.. قل لي على الأقل... ما اسمك؟
- إن اسمي زكي... زكي سليمان... ولا يهمني أن أعرف من أنت، وغضبي ليس مصدره أنت... بل هي القضية التي كنت تتحدثين عنها... قضية المرأة المثقفة التي لا تعرف وسوف لا تعرف الحكمة وراء الثقافة والتعليم... تظن الواحدة منكن أنها إذا ما تعلمت ووصلت مرحلة عالية من الثقافة والتحصيل أصبحت تفوق عالمها... وعالم الرجل... وأخذت تتظاهر بذلك وتباهى... وربما تعالت على زميلها الرجل لا شيء إلا لأنها أنثى...

ولما لم يصله صوتها صاح قائلاً: «هل تسمعين؟...» وكأنها أفاقت من حلم أو سبات عميق...

- «نعم... نعم...» ولكن... هل قلت: إن اسمك... زكي سليمان...؟
أنت الرجل الذي يعمل موظفاً في شركة.....
- وبدهشة واستغراب أجاب «نعم.. ولكن كيف عرفت..؟» وقبل أن تروي غليله ألقت عليه تحية وأقفلت سماعة التليفون.

وعندما أفاق لنفسه بعد ساعات... أخذت علامات تعجب كثيرة تتراقص أمام عينيه:

«من هي... يالي من غبي!... حتى اسمها لا أعرفه... وهل هي مثقفة ثقافة عالية كما ظننت؟؟ هل قسوت عليها في الكلام؟؟؟
«ثم.. كيف عرفت أنني أعمل في تلك الشركة؟؟ لعلها قرأت اسمي في قضية الاختلاس والرشوة؟؟؟

وبدأ يتخبط يمنة ويسرة في أفكاره... ووقع نظره على التليفون، وقفز واقفاً وحاول أن يتذكر الفكرة التي أوصلته إليها... ولم ينجح وقبل أن يستدير ألقى نظرة أمل على التليفون لعله يناديه... لعله يريح أعصابه وأفكاره التي أخذت تتزاحم..

وما هي إلا دقائق حتى هز كيانه رنين الجرس... فألقى بنفسه على التليفون ورفع سماعته بيد مرتعشة وقلب واجف وهتف:

- آلو... أهذه أنت مرة أخرى... و... وسكت فجأة كمن وقع في حيرة وياس.
- آلو... زكي... (مع من كنت تتحدث قبل قليل؟؟)..
- ولم يدر ماذا يجيب؟.. لقد عرف صوت محدثه... واستغرب أن يطلبه في تلك الساعة... جاءه الصوت مرة أخرى... الصوت الذي يتحدث إليه كل يوم في الشركة... صوت المدير...
- مرحباً أستاذ... لقد كانت محادثة غريبة... أظن أنني أضعت وقتي فيها...

فتاة ضالّة أرادت أن تلهو أو أن تقطع الملل بالحديث في التليفون كعادة الفتيات ...

وماذا كان الحديث؟ ..

(وبعد تردد...) حديث تافه سخيف لا معنى له...

ولكن لماذا اشركت فيه واندفعت تتحدث بجرارة وحماس؟ ..

أنا... أنا تحدثت بحماس وحرارة... (وكأنه استدرك ما ينبغي أن يقوله) ولكن كيف عرفت ذلك؟؟.. قالها بدهشة بالغة.

لا عليك... يمكنك أن تجيء إلى بيتنا الآن لتعرف... أنا في انتظارك...

وفي الطريق... افترض عدة افتراضات... ولكن لهفته وشوقه إلى معرفة السر أراحته عن عينيه كل ما قد يوصله إلى الحقيقة...

وعندما وقف على الباب بادره وجه سمح بشوش... وفي صوت رقيق جميل سمع فيه نبرة التليفون قالت:

أهلاً أستاذ زكي...

ولم يمهله مديره في العمل لكي يسترد أنفاسه، بل قال:

منذ أن أنهيت قضية الاختلاس والدور الذي أدّيته في سبيل سمعة الشركة والأمانة التي اتّصفت بها في معالجة الموقف وأنا أفكر في إسناد مسؤولية إدارة أعمال الشركة إليك...

ولكن يبدو أن الموقف قد تغَيَّر الآن... فعليك أن تختار الآن... بين هذه...

ونظر إلى ابنته التي ابتسمت في دلال... وبين تلك

ولم يدر ماذا يجيب... وهب واقفاً...

وبادره الأستاذ عبد الله قائلاً:

إلى أين؟...

إنني ذاهب أقدم استقالتني...

ونظر إليها من طرف خفي... فبادلته النظرات... سريعة... معبرة...

وخرج... ولم يودّعه أحد... على أمل العودة.

اللسان في امر



اللسان المر

أخذت خطواته تتشاكل تدريجياً عندما وطئت قدماه البيت... ودارت عينان حائرتان في كل ركن من أركانه... تحجرتا على مقعد خال اعتادت زوجته أن تجلس عليه دوماً... واندفع يجري إلى غرفة طفله بعد أن حركت الرياح شباكها... فقد وقع في أذنيه صوته وهي تبكي وتصرخ احتجاجاً... وشعربدقات قلبه تعلو وتهبط في حركات منتظمة سريعة... وأخذ السكون يلقيه من كل جانب... وعندما أغلق النوافذ وأرخت الستائر لفق الغرفة ظلام دامس كالظلام الذي يغلف نفسه... وراح الهدوء يسيطر على أرجاء البيت ويتسلل إليه شيئاً فشيئاً...

هنا تعود أن يجلس أمام كرسي زوجته المفضل، وتحت قدميه تبرج الصغيرة وتلعب... لا... بل هناك مجلسها الذي يجذبها إليه كي تمارس ألعابها ونشاطها الهندسي في جهاز الراديو أو التلفزيون.

وشعر بحاجة شديدة إلى فنجان قهوة يهذى من روعه، وتحرك متثاقلاً إلى المطبخ... ودارت عينان زائفتان في كل ركن... وأخذت يدها في حركات عصبية تفتح أدراج الدواليب بحثاً عن البن... وأخذ يبحث عن الوعاء الذي يصنع فيه القهوة... لله... ما أشدها لحظات!.. كيف أستطيع أن أصنع قهوة تزخم رائحتها أنفي وأتلفذ بطعمها — كالعادة —؟؟ ما هذا المسخ الذي عملته؟... ليس له طعم ولا مذاق...

وعاد إلى كرسيه وقد اشتدت وطأة الهدوء... وظن أن العالم قد خلا من الحركة... ولم يعد يسمع غير ضجيج أفكاره، وصراخ ضميره...

وقرر أن ينام مبكراً علّه يرتاح من هذا الصمت أو يتناساه!!... وامتدت يده في طريقها إلى ما تعودت عليه... ولكنها لم تلف إلا ببرودة الفراش تلسعها... وانتفضت إلى الوراء في ذعر... ولم يشعر بالأنفاس الحارة بجانبه... وأخذ يتقلب في فراشه... ضجراً... قلقاً... ولم يدر كم مضى عليه وهو (مبجلق)... غير أن تأملاته وشريط الحوادث لم ينقطع... وخيل إليه أنه يسمع صراخ طفله... فقفز مسرعاً إلى غرفتها... واستوقفته وهو عائد، صورة معلقة على الحائط تجمعهم هو وزوجته... إذن فقد خرجت!! ولم يبق خلف رحيلها سوى الذكريات وهذه الصورة.

خرجت... خرجت... وأخذ يردد هذه الكلمة إلى أن ارتدى على الكرسي، ونور خافت، وصمت مطبق يلف جو البيت بكامله...

وجذب كتاباً من المكتبة وحاول أن يقرأ... ومرت دقائق لم يفهم خلالها شيئاً... وازداد حنينه إلى القهوة... واقتصر عن ابتسامة ظلت حبيسة منذ فترة... وصوت من بعيد يردد صدى كلماته... خرجت واسترخى في هدوء...

إنها ليست أول مرة تفارقه فيها زوجته... ولكنها الأخيرة... فلم تكن الحياة تسير بينها على وفاق... كانت هناك فجوة عميقة وهوة سحيقة تفصل بينهما... كانت عقليتهما مختلفتين... وكان مزاجهما متباينين... وكان الطريق إلى التفاهم بينهما صعباً.

هو... بثقافته العالية، وعمق تفكيره، وحلمه الواسع، وحبه للخير، وصلته للرحم. وهي... بصلفها، وكبريائها، وشموخها الذي رضعته من ثدي أمها وحبها للناثا، وأنانيتها المتناهية. ولسانها المر السليط.

وكانت العقدة المستحكة في قرارة نفسها أنه متفوق عليها فكرياً وأن مراحل كبيرة من التعليم والثقافة تفصل بينهما... وكثيراً ما حاولت أن تعوّض ذلك النقص بالغلو في أناقته والتباهي بزينتها والتفاخر بثروة أبيها.

وجذب نفساً عميقاً من سيجارته... وكأن صوتاً من الماضي القريب يناديه... فحاول أن يصمم أذنيه، وأن يتغاضى عن ذلك الهاجس... إلا أن أفكاره كانت تتضارب وتتجاذب... وبرز من خلال تلك المعركة الحوار أو الخصام الذي أدى إلى أن

تترك زوجته البيت وترحل عنه ... لقد كان ذلك الموقف نهاية لمأساة بدأت منذ أن
اقتربنا قبل ثلاث سنوات ... كانت تجرجه معها في حوار طويل تافه لا ينتهي إلا من
حيث بدأ من جديد ... كان يحس أنها تريد أن تضايقه أو أن توغل صدره ضد والدته
وأخته وأخيه الصغير، وكان يشعر بحساسية الرجل أنها تريد أن تستحوذ عليه، أن
تمتلكه لنفسها ...

قالت له :

- ألا تريد أن تتوقف عن القراءة قليلاً :
- إنني لم أبدأ بعد القراءة ...
- ولكنك صامت ... عابس، كأن كابوساً ألقي على صدرك.
- لقد كنت أنصفح هذه المجلة بينما تخرجين من غرفتك ...
- وهل تدري بم كنت مشغولة؟؟ ألم تلاحظ شيئاً؟؟
- لا ... وكيف لي وأنا جالس هنا؟..
- طبعاً لا تدري ... لأنك لم تعد تهتم بي ... لم أعد طفلتك المدللة التي كنت تهتم بها
حُباً ... أنت لا تحبني لذلك لا تهتم بي ...
- ها نحن مرة أخرى نعود إلى الضرب على النغمة المعتادة ... ألا ترين أنك في كل
مرة تقحمين الحب في كل موقف؟..
- وهل أجدى معك ذلك؟.. وهل حركت فيك كلمة الحب مشاعرك الجامدة؟..
- ليتك تقول لي أي صنف من الرجال أنت؟؟ .. إن هذا «الفسطان الجديد»
الذي أرثديه الآن، كلّفني الكثير من الوقت والجهد والمال ... هل لاحظته؟؟
- هل أبديت إعجابك به؟ وامتدحت ذوقي؟ هلاً سألتني من أين جئت به؟؟
- إنك إنسان بلا قلب ... أنا ناني ... لا يهتم إلا بنفسه وكتبه و... وأهله ... أما أنا
فلا يعننيك من أمري شيئاً ... سواء لبست ثوباً جديداً أو قيصاً مهلهلاً ... إن
المرأة يهمها أن تلبس وأن تتزين، ولكن ... يهتمها أكثر أن تتلقى المديح
والإطراء ... خصوصاً من زوجها ... من الرجل الذي تعيش معه ... وتشاركه
حياته، ومحبا وتحبه ... و
- ألا ترين أنه يجب أن تتوقفي قليلاً وإلا مضى علينا النهار قبل أن نتناول

— ها ها... وماذا أفادها التعليم أو الشهادات وهي لا تعرف ماذا تلبس في الصباح وماذا ترتدي في المساء؟؟ هل تذكر كم مرة أوقعنتي أختك هذه في أحلك المواقف وأشدّها حرجاً عندما كانت مقيمة معنا و يضمها مجلس مع صديقاتي و يبدأن الحديث عن أحدث ما وصلت إليه الموضة ودور عرض الأزياء... الحمد لله الذي خلّصني منها فقد كانت لا تفقه المسكينة شيئاً ممّا تقول... وكأنها تعيش في عصر جدتي... (وأردفت)... ولا أريد أن أذكر كلام أمك الذي لا يتغير ولا يتجدد... الطبخ... الغسيل... نظافة البيت... الدّعاء... التسييح...

— لقد سمعت هذا الكلام كثيراً— يا رجاء... وفي كل مرة أطلب منك عدم التعرض لأثمي وأختي... أنت تعلمين مدى حبي لهم... وتدرकिन أن الإساءة إليهم هي إساءة إلي... وأنا لا أريدك أن تزيدي من آلامي فمن السهل على الإنسان أن يؤذي غيره... فتنبهي إلى ذلك...

— وإذا لم أنتبه ماذا ستفعل؟... أنت تعرف أبي وتعرف مركزه وبيته مفتوح لي في أي لحظة... بل إنه يتمنى أن أعود إلى حياة الرفاهية والعيش الرغد بدلاً من هذا الجحيم والفقر الذي تسميه حياة... وإذا كنت لا تستطيع أن تلبي طلباتي وتتأقّف منها، ولا تقدر على مخالفة أوامر أمك فلماذا لا تعمل على زيادة دخلك من أوسع الأبواب وأقصرها؟؟... لماذا تزوجت من أسرة مرموقة...؟؟ لماذا لم تبحث عن زوجة من طبقتك ترضى بمقاسمة أهلّك لقمّتها...؟ حقاً... لقد

كنت مجنونة عندما غرتني شهادتك... وسحرني شكلك... و... وكفى... لم أكن أعلم أنّك تافهة... وأن والدك يشجّعك بغباء على تصرفات خاطئة... الفتاة عندما تتزوج تنصهر شخصيتها مع زوجها... تقف معه وتسانده وتساعد... الحياة بينهما مركب يشق عباب البحر يصارع الموج والتيار حتى يصل إلى شاطئ الأمان... وإذا كنت لا تعرفين من الحياة إلّا التافه منها... ولا تفكرين إلّا في نفسك وملابسك وزينتك... فبييت أهلّك أولى لك، ويمكنك

أن تعودى إلى والدك ليزين بك مجلسه ، فهناك في «صالون الجلوس» مكان خال
من تحفة أو صورة زيتية ... فاذهبي واكملي ذلك الفراغ ...
أما أنا ... فسأعود إلى أمي التي أسأت إليها بسببك ... وسأحرص على أن تكمل
أختي (الخنفاء) مواصلة تعليمها ... وعندما يكبر أخي سأروي له تجربتي المرة
معك لكي لا يتكرر الخطأ ... ولكي يتجنب الشقاء واللسان المر.

* * *

الأستاذ علي



الأستاذ علي

كل شيء فيه يدل عليه ... لم تغيره سنون ولا أحداث ...
الصفرة التي تملو وجهه وكأنها ناتجة عن سوء تغذية أو مرض عضال مزمن ...
الملابس القديمة وإن كانت تبدو نظيفة، ذلك التلوث الذي بدأ مع مرور الزمن
وكثرة الاستعمال يعلن سخطه ونقمته على اللون الأبيض، والكوت الأزرق الذي بهت
لونه وأصبح يحاكي لون السحاب الداكن، أما العمة التي تملو رأسه فقد كساها الغبار
وذرات التراب بحيث ضاعت معالم لونها الطبيعي .
لم يشاهد الأستاذ علي يمشي في الأسواق متجهاً إلى المدرسة أو عائداً إلى البيت بظهره
المحدودب قليلاً، إلا وبعض الكتب المدرسية في يديه، يمشي مسرعاً ويحيي كل من
يقابله في الطريق، و يبتسم لأهل الحارة عندما يدلج فيها من غير أن يتوقف أو يضع
دقائق في سفسطة أو سؤال بارد كما كان يقول ... وكأن الأستاذ علي آلة حاسبة، أو
ساعة حائط لا تقدم ولا تؤخر، فهو يمشي على نظام دقيق تتحكم فيه الساعات والدقائق
و... والثواني ... النوم في وقت محدد ... الأكل في ميعاد لا يختلف ... دخول المدرسة
صباحاً بالتمام والكمال، وقوفه في الفصل حتى ولو سبق التلاميذ ...
النظام ... النظام ... كلمة يردددها في الصباح قبل أن يلقي تحية الصباح على
الأولاد ... ويجب أن يرى النظام سائداً بين الصفوف وفي الدفاتر، وحتى في طلب
الكلام أو السؤال ...

كان حازماً في إدارة الفصل... قديراً في علمه، سلس الشرح في مادة الرياضيات، لا يُقَصِّر في توضيح المسائل، ولا يبخل على التلاميذ بأية وسيلة للإقناع أو الفهم...

كان محل رضى إدارة المدرسة والمفتشين، وموضع تقدير زملائه المدرسين، وإن كان لا يشارك في النشاطات المدرسية أو الرحلات، لذلك فقد عرف عنه ذلك الجانب من الرفض إن أحد جادله في ذلك...

الأستاذ علي... يعيش في بيت قديم في مكة ورثته أمه عن والدها، وبعد موت زوجها طلبت إلى ابنها أن يشاركها السكنى ليؤنس وحدتها، وتسهر هي على قضاء حاجاته... ورغم تردده في قبول ذلك إلا أنها ألحت عليه مراراً، فرضي مدعناً حتى لا يفقد رضاها...

كان بمقدوره أن يكسب ود كثير من الناس، وأن يصادقهم ويلقى منهم شعوراً طيباً... فقد طبع على جبلة بسيطة، لا يحب التكلف، أو التظاهر، وكان أميناً، وفيّاً، مخلصاً... إلا أنه أثر الشيخ صالح صاحب الدكان الذي يقع بجوار بيته وخصه بصادقته، وقضاء أكثر الأوقات في صحبته، إتما جلوساً عنده في الدكان، أو بالذهاب معاً إلى بيت أحدهما وكثيراً ما يمشيان سوياً إلى المسجد الحرام ليؤديا صلاة المغرب والعشاء ويعود كل إلى بيته.

الشيخ صالح - هذا - رجل صالح زاهد، فقير الحال، كثير العيال، وهو يعرف الكثير عن حياة الأستاذ علي.. وكان يشعر بالأسى في قرارة نفسه وهو يرى العمر يجري والأيام تسابق بعضها في حياة الأستاذ علي.

- لقد رأيت فيما رأى النائم ليلة البارحة - قال الشيخ صالح - وسكت قليلاً.
- خيراً إن شاء الله... أجاب الأستاذ علي... وقد كسا وجهه اهتمام وشوق.
- حلمت أنك كنت تسير في وسط جماعة كبيرة يلبسون ملابس بيضاء وكأنني أسمع أصوات غناء ودقات طبول...
- (أطرق الأستاذ علي) ثم رفع رأسه وقال: خيراً إن شاء الله... إتما أنها المنيّة... (سكت قليلاً...).

- وإما أن يكون موكب عرس...
- لا فرق بينهما. هذه في الدنيا، وتلك في الآخرة... «والآخرة خير وأبقى»...
- «والدنيا متاع... وخير متاع الدنيا امرأة صالحة»...
- امرأة صالحة... آه... وأين هي تلك المرأة الصالحة؟.. ألا ترى أن زماننا زمن العجائب؟؟؟ والعجائب كلها لا تأتي إلا من النساء!
- إنك لم تجرب، فحياة الرجل دون زوجة، حياة ضائعة، كما أن الزواج نصف دين الرجل.
- أتركني في همتي يا شيخ صالح، فأنت تعرف البئر وغطاءها.

وقام منصرفاً... وفي الطريق أخذ يفكر في الشهرين المتبقين على الامتحان... ودق قلبه فجأة... وأحس كأنه قد سقط بين ركبتيه... شهران فقط!!! يالله!!!... ترى... هل يرغب ذلك التلميذ حسن ابن المرحوم المعلم يعقوب في دروس خصوصية كالعام الماضي... وإذا رغب... هل أقبل؟؟ ولماذا لا أقبل؟؟ ولكن... سأكون مشغولاً ومضغوطاً في هذين الشهرين الباقيين — كالعادة — إن طلبتي الذين رافقوني ورافقتهم من المتوسطة حتى السنة النهائية للتوجيهية معدودون. وأنا لم أقبل إعطاء دروس لهذا الولد الغبي وأخته — متوسطة الذكاء — إلا بعد إلحاح من أمي التي تربطها صداقة مع أم ذلك الولد والبنت... أم الولد... وتوقف عن المشي... أمه... وصارها جس قوي يهتف داخل نفسه... أمه... تلك المرأة اللطيفة المؤدبة المهذبة... إني لم أروجهما إلا مرة واحدة، لللمحة، لحظة، لم أتبين معاملها، وإن كان جسمها المرتوي، وطولها المربع كفيلين بأن ينيآني بأنها امرأة في وسط عمرها... صبورة، قوية العزيمة، عكفت على تربية ولدها وبنتها بعد أن مات زوجها... تعمل ليل نهار كخياطة... وتصرف عليها من دخلها المحدود، لم تلجأ إلى خال أو إلى عم... وسمع صوتاً خفياً يقول: «هكذا النساء وإلا فلا»... وتذكر كيف أنه رفض أن يتقاضى شيئاً عن الدروس التي أعطاهها للولد والبنت بعد أن عرف حالة الأسرة الفقيرة، وكيف أصرت الأم وهي تكلمه من خلف الباب قائلة: «إن ما نقدمه لك شيء ضئيل، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة». وعندما أجابها شاكراً أنه لا يرغب في أخذ شيء منهم لأنه يشعر بأن هذا

واجب عليه، قالت: «لقد تعبت، وبذلت مجهوداً كبيراً مع حسن وأخته ونحن لا نعرف كيف نشكرك، فأرجو أن تتقبل هذا المبلغ البسيط...» ولكنه رفض في إباء وشمم...

مر بمخيلته ذلك الشريط سريعاً وهو في طريقه إلى البيت كأن الأحداث لم تتغير أمامه... وكان صوت الأم يرنّ في أذنه وهو يحاول جاهداً أن يشحذ ذاكرته لترسم معالم وجهها الذي لم يشاهده إلا للحظة واحدة...

وضاعت تلك الذكريات اليتيمة من رأسه، وهو في خضم الدفاتر والتصحيح، وغاب عن عينيه طيف ذلك اليوم كالحلم الجميل الذي يداعب خيال النائم ليلاً، وعندما تنبلج تباشير الصباح يختلط أوله بآخره فلا يبقى منه إلا اليسير...

* * *

وعندما همّ الأستاذ علي بلبس ملابس النوم بعد أن خلع ثوبه والكوت الذي يلازمه، وعلق العمة على مشجها الذي لم يعرف له ماضياً وحاضراً ومستقبلاً سوى تلك العمة... جاءت أمه ترجوه أن يلبس ملابسه وينزل إلى السوق ليشتري عشاء شهياً للضييفة العزيزة التي جاءت لزيارتهم، وقالت الأم في استحياء: «مُطَبَّق... يا ولدي... مطبق» إن أم حسن لا تزورنا إلا مرة في العام، وقد أقسمت عليها بالبقاء والعشاء معنا إذ أنها تريد أن تحدثك في أمر هام... وتطأيرت الصور أمام عينيه مرة أخرى، ولم يشعر بنفسه إلا وهو هابط في ركض نشيط كاسراً بذلك نظام حياته غير عابىء بما سيصيب أمسيته من إرباك وفوضى...

وحل العشاء في يد مرتجفة، وأحس بنفسه تتجاوب مع قلبه ويده في الارتجاف... وهو يردد: «أمر مهم»... «أمر مهم»... ترى ما هو غير إعطاء دروس خصوصية لذلك الولد البليد وأخته. وقبل أن يفيق من تساؤلاته سمع أمه تشكره على سرعته في إحضار العشاء ولم يعرف للطعام مذاقاً... «أواه... ما أبردها!!.. هل قدمت الكلام في الأمر المهم قبل الأكل؟؟.. لماذا أمتي هكذا؟؟.. هي دوماً هكذا!!!!.. الأكل عندها أهم من أي شيء في الدنيا...» ومرت لحظات خالها دهرًا كاملاً...

وعندما أطل رأس أم حسن من الباب يتكلم في خفر ودلال... لم يسمع ما قالت... ولم يدرك عماذا كانت تتكلم... بل ركّز نظره على ذلك الوجه والشعر الأسود

الفاحم وجدائله المدلاة خلف جسمها الرتيان... وقالت كلاماً كثيراً لم يتبين منه إلا الامتحان والدروس الخصوصية... الولد والبنت... وقطع عليه تأملاته صوت أمه وهي تقول: «إن البنت قد كبرت هذا العام يا أم حسن، فكيف سيقابلها علي... إن هذا لا يجوز...» وأجابت أم حسن في ثقة واطمئنان... «إن الأستاذ علي ليس غريباً، فهو مثل والدهما، وثقتي فيه كبيرة، فهو أولاً: ابنك. وثانياً: الأستاذ علي إنسان مهذب، صالح، يخاف ربه. وثالثاً: سيكون معها أخوها حسن...» وضحكت أم علي وكأنها توافق على كل ذلك... وسره أن يسمع ذلك منها وكأنها تطريه أو تمتدح خصائصه، وتمنى لو استطاع أن يعبرها عن شكره... ورأيه فيها... وجاءه صوت أم حسن يخضه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه «هل أنت موافق يا أستاذ...» وقبل أن يجيب بكلمة... كان صوتها أقوى وأسرع منه «سنتنظرك غداً بعد العصر...» وكأنها قررت الأمر.

* * *

وعندما همّ بوضع رأسه على المخدة لينام... كانت أفكاره أسبق إليها من رأسه، وصورتها هذه المرة واضحة جلية، بل إنه حمد لنفسه تناولها بمد عنقه كي يرى من جسمها ما حاولت ستره وراء الباب...

وجه أبيض... أنف دقيق وإن كان أفتس قليلاً... فم واسع تتدلّى منه شفة مكتظة، أسنان يلمع بريق الذهب في أعلاها... شعر أسود، جدائل طويلة... جسم مكتظ... صوت قوي فيه حزم وثقة في النفس... وموعد - غداً - لإعطاء دروس خصوصية.. وأنا.. أنا.. الأستاذ علي ماذا قلت؟، ماذا كنت أنوي أن أقول؟ أين رفضي؟ وهل كان لزاماً عليّ أن أقبل وجدولي مليء... لا... لا... ليس مليئاً، لقد تركت فيه ثلاث حصص خالية... كنت أطمع في أن أعتم ذلك الولد البليد... ثم رفع حاجبيه وأخذ يبخلق في الظلام... ولم ير شيئاً أمامه...

وطالت ليلته... وتمطى نهاره، وهو قلق، حائر مضطرب «ماذا أريد؟؟ ولماذا كل هذا الاضطراب؟؟؟» ولم يصل إلى جواب شاف.

* * *

وعندما طرق الباب جاءه صوت حسن، وأطلّ وجه لا جديد فيه، تلك البلادة المرتسمة عليه، لله ما أقسى البغض!. «وهنية مرت... سمع وقع أقدام نسائية...» لا بد أن البنت قد كبرت فعلاً، وهذه مشيتها تدل على ذلك... «وفتح فيه عندما رأى أم حسن واقفة أمامه وعلى رأسها شرشف أبيض يلف جسمها فيزيده جمالاً، ومدت إليه يداً تصافحه، أهلاً يا أستاذنا... أهلاً...» وسحب يده بعد أن لامست يدها... ونظر إلى كفّه العذري الذي لم يصفاح كفّ أنثى من قبل، ولم يدر ماذا يقول سوى أنه هزّ رأسه وتلعثم في الكلام، وأشاح بوجهه فالتقت عيناه بوجه الفتاة وكأنه لم يرها من قبل، فقد انتفض جسمها، وانفرد طولها، وبرزت فيه معالم الأنوثة... فتخبّطت محاجر عينيه مينة و يسرة، وتقصّد العرق من جبينه، وسمع دقات قلبه تشتد، وهرع إلى أقرب كرسي يرتمي عليه بعد أن صكت ركبته وعجزتا عن حمله...

دقائق سريعة مرت ولكنها تزن أيامه ولياليه الماضية جميعها، ولحظات خاطفة سريعة عبرت أمام عينيه فلم يجد لها معادلة أو ركيذة رياضية يعالج بها ارتباكها... وأدار الطرف بين الاثنين، وتمالك نفسه شيئاً فشيئاً، وجمع شتات نفسه وفتح الكتاب وبدأ في إعطاء الدرس... ولمح انصراف الأم ونظرات ذابلة من عينها وكأنها تدكّ حصنه... فعمد حاجبيه، وأرسل نظرة صارمة — طالما أخافت الأولاد في الفصل — إلى الفتاة فسقط نظرها على الكتاب، وخاطب حسن بأن يبدأ في قراءة الدرس واستمروا منهمكين في حل المسائل...

* * *

وعندما انصرف... تلكاً عند الباب، ولكنه لم ير أحداً فخرج محملاً بأسئلة كثيرة تمتنى لو باح بسرّها إلى أمه أو الشيخ صالح... ومرّ شريط اليوم في مخيلته لحظة بلحظة فأسلمه ذلك إلى القلق، وأرق ليلته، وقام يتخبط في ظلام الليل واتّجه إلى أمّه بعد أن أفاقت يسألها عن اسم أم حسن ونظرت الأم إلى ولدها وحاجب عينها قد ارتفع حتى كاد أن يلامس شعر رأسها دهشة واستغراباً «تسألني عن اسمها في هذا الليل، لماذا؟؟ ألا يمكن أن تصبر حتى الصباح... هل أنت على ما يرام يا عني؟.. أتشعربتعب؟ هل حلمت حلماً مزعجاً؟؟»... ولكنه أصر على معرفة الاسم... وكأن عطشان في يوم قائف شديد الحرارة تحصل على كأس ماء بارد روى به غليله... كأن اسم سعدية قد

نزل على سماعه فأسكن تعطشه ، وهذا من روعه ...

وذهب إلى الفراش وهو يردد بينه وبين نفسه ... سعيدة ... سعيدة ... ونام ...
ولكن أمه لم تنم ... وعرفت أنَّ في الأمر سرّاً ، « ولكن علي لا يخفي عني أسرارهم ... ومن
أين له أسرار ذلك الفتى العانس المسكين ؟ .. ولكن ... هل يمكن أن ... لا ... لا ...
مستحيل ... » ودخلت المسكينة المعركة بلا سلاح ، فلا تدري ما هو السر في ذلك ،
وإن كانت قد تخبطت حوله ...

مر الأسبوع الأول من حياة الأستاذ علي سريعاً على غير ما تعودت عليه أيامه ،
وبدأت علامات غريبة تظهر على مسلكه الشخصي ، وتصرفات غير طبيعية تحل محل
الدقة والنظام اللذين عرفاه عنه ... لم يكن يدري ماذا يريد ، ولم يعرف بالتحديد ما هو
مصدر ذلك الاضطراب ، ولا مبعث القلق في نفسه .

عندما جلس على « كرسي الاعتراف » أمام الشيخ صالح بعد انقطاع طويل بادره
هذا على غير عادته ...

— أقطع يميني إذا لم يكن في حياتك امرأة ...

وعندما فتح فيه دهشة تساقطت الكلمات من فيه باردة كالثلج ، ولم يحرك الأستاذ علي
جواباً ... وخفض رأسه ونظرات منكسرة كنظرات فتاة أعلنت خطبتها أمام أفراد
الأسرة ... وكأنه يوافق على ذلك ...

وأطرق الشيخ صالح ملياً ... وكأنه يحاول ألا يجرح شعوره بعد أن رأى ما رأى من
حيرة وألم على وجه صاحبه ... ثم قرأ أن يساعده في أمره ...

— كل عقدة ولها حلّال ... وما يصيبك يا بني آدم إلا ما كتب الله لك ... فلا
تبتس يا صديقي ... وكل شيء مرهون بوقته ...

وبعد أن أخبره بسرّه في دقائق قليلة وكلمات مقتضبة قال له :

— هل تراني أخطأت في الاندفاع وراء شعوري ؟؟ ألا ترى أنني أعيش في وهم
كاذب . إنني منذ أن رأيت أم حسن أصبحت حياتي كلّها كتاب اسمه أم
حسن ، مسألة رياضية بحتة لا تحلها إلا نظرية واحدة هي أم حسن ... أنا وأم
حسن سنكون معاً نظرية تطابق المثلثين .

عندما هرع إلى داره كان عزمه صادقاً على الزواج من أم حسن ، وكانت نفسه طموحة إلى أن يضمه وإياها بيت واحد وأن تشملها سعادة ورفاهية مشتركة ..

أخذ والدته من يدها إلى ركن منعزل في البيت وسألها :

— أتذكرين ليلة أن سألتك عن اسم أم حسن؟؟ ..

— نعم ... وهل يمكن أن أنسى ذلك؟

— منذ ذلك الوقت وأنا أفكر وأفكر... لقد ملكت سعادة كل إحساسي وشعوري ، لم يعد لي هم سوى التفكير فيها وفي مستقبلنا معاً...

ورفعت الأم حاجبها — كعادتها — دهشة ... وأرادت أن تتكلم ... ولكن علي لم يمهلهما ... « لقد قررت أن أضع نهاية لحياة الوحدة التي أعيشها وأن أتزوج من سعادتي ... »

وكأن صاعقة أصابت أمه ، فانتفضت واقفة والغضب يملؤها ...

— تتزوج؟؟ ومن سعادتي؟؟!! يالك من ولد عاص ... مسكين ... أتريد أن تتزوج من امرأة عازبة في سن أمك؟؟ هل جنت؟؟ هل انتهت الدنيا؟؟ هل خلت مكّة من النساء ولم يبق فيها غير سعادتي؟؟. قل لي أريد أن أتزوج ، وأنا أخطب لك أحلى البنات ... أنت ولد أبله .

وقعت كلمات أمه في أذنيه كالبحر ... وبدا له أن الموقف لا يتحمل مناقشة أو محادثة مع أمه ... فهي دائماً تنتصر في النهاية إذا ما لوحث له بالرضى ... والمصير الذي ينتظره في الدنيا والآخرة إذا هوعصى أمرها ...

وأسرع إلى غرفته يدفن آلامه وأحلامه في وحدته ... ولم يطق صبراً فلجأ إلى صديقه الشيخ صالح ... وانفجر باكياً كطفل فقد أهله ... وعندما أخذ يهدأ قليلاً نظر إليه صاحبه ومرارة في عينيه :

— أتترك مصيرك تتحكم فيه أمك؟؟ هل تضحّي بحياتك ومستقبلك وحبك من أجل أن ترضي غرور امرأة؟؟ أين الرجولة فيك؟؟ أين شخصيتك؟ أين إصرارك على الزواج منها؟

بدأت كلمات الشيخ صالح وكأنها غريبة عليه... هل يقف موقفاً حازماً و يرمي كلام أمه خلف ظهره و يقدم على الزواج منها؟؟ هل يحقق رغبته و يترك أمر رضى والدته للزمن فلعلها تغير رأيها بعد ذلك؟؟؟

لم يدربها ماذا يفعل... وخرج يتخبط في مشيته.

وعندما رجع إلى بيته في وقت متأخر من الليل لم يجد عشاءه حاضراً كما عودته أمه بل وجد حوائجه وملابسه وأشياءه كلها في ركن خارج غرفته... وقبل أن يفيق من دهشته أطل رأس أمه من غرفة أخرى وقالت في حزم:

— هذه حوائجك خذها ولا ترني وجهك بعد الآن... أنا لا أريد ولدأ عاقاً يعيش معي... لقد أفنيت عمري معك وعندما بدأ الشيب يكسور رأسي، والضعف يغزو جسمي، بدأت أنت تبحث عن المتاعب. اذهب... اذهب... اغرب عن وجهي...

وسمع صفقة الباب ترن في أذنيه كرعد قاصف... وهزه الموقف...

وهرع إلى باب غرفة أمه وركع على ركبتيه وهو يحش بالبكاء:

— أُمِّي... أستغفر الله إن أنا أردت أن أعصي لك أمراً... أستغفر الله إن كنت أردت أن أغضبك... سوف أنسى الأمر... سوف لا أفكر بعد الآن في زواج أو في أي امرأة!!!...

واشتد بكاءه وتشنجه... وأراد أن يقف فلم يستطع... فزحف إلى غرفته وهو يرتجف كمن أصابته حمى...

وفي الظلام... أخذ يخلق في الأفق البعيد وهو يردد... «نعم... أُمِّي أولاً... رضاها قبل كل شيء...»

وعندما ألقى تحية الصباح على صديقه الشيخ صالح كان قد اكتسى مسحة الجد التي تعودها قبل أن يلتقي أو يفكر في أم حسن وهو يردد فيما بينه وبين نفسه «علينا نحن المدرسين أن نشقى لنسعد الآخرين».

* * *

والتحصيل ... طاف أنحاء العالم ... وكان ذكياً، طموحاً، وسيماً، يتمتع بجسم فاره طويل مكنه من إجادة ألعاب رياضية مختلفة ... لطيف المعشر، حلو الحديث، ميالاً إلى الدعابة ... تبدو في عينيه ملامح الجد والعزيمة ... وكانت هناك ابتسامة ما تعلق شفثيه ... وكان محبوباً ومرموقاً من قرنائه ... وموضع احترامهم .

لم يكن سعيه وراء اللذة وجريه خلف المتعة إلا نتيجة طبيعية لظروفه الاجتماعية والمادية التي حققت له الكثير منها ويسرت له جميع رغباته ...

ومع هذا ... فقد كان يحس بأنه يفتقد شيئاً ما ... شيئاً لم يستطع معرفته أو تحديده . شيئاً ... غلب على تفكيره، وجعله يندفع أكثر دون أن يصل إليه أو يكتشفه .

شغل نفسه بالتجارة فازدادت ثروته وامت تجارتها وتوسعت ممتلكاته ... ومع هذا لم يجد في تجارته سلوى ... أو في ربحه عزاء ...

سلك طريق الخير ... فأنفق أمواله على الفقراء والضعفاء وأوجد مسكناً للأرامل واليتامى ... فأحس براحة نفسية مؤقتة ما لبث أن عاد يبحث عن ذلك الشيء الذي يفتقده ...

استجاب لنداء القلب ... فتزوج من المرأة التي أحبها، وأفنى روحه في روحها، وصهر جسده بجسدها، وعاش أياماً وليالي يسيطر عليه التفكير في الشيء الذي يفتقده ... دون جدوى!!

لجأ إلى تسليته الوحيدة وهوايته المفضلة ... ركوب البحر ... واستقر على ظهر المركب زمناً ... وكان يمضي الساعات والليالي يعمل بفكره الثاقب وبصره النافذ في معرفة كنه البحر وأسراره وعمقه ... لعله يصل إلى ذلك الشيء الذي يبحث عنه ويعذبه، أو لعله ينسى ... ينسى قلقه وعذابه وحيرته التي أخذت تشتد وتزداد يوماً بعد يوم ... ولكن البحر صامت ... عميق ... ضنين ... وصار يجرب كل الوسائل التي تعطيه المتعة وتساعد على النسيان ... دون جدوى ...

وغدا الهمس الداخلي في نفسه صراخاً ... واشتد الصراخ ... وبدأ الصراع الشديد في نفسه يقوى ويشتد ... فأصبح يطيل التأمل والتفكير:
«ماذا أريد؟»

ماذا ينقصني؟؟

إذا كنت أمتلك أسباب السعادة... فلماذا لا أشعر بها؟؟ ما هي السعادة
إذن؟؟... مال... جاه... ثقافة... شباب... حب...!!
إنني مازلت — ولا أزال — أبحث عن شيء ينقصني... أفتش عن أمر أضاع مني
عمري... أقض مضجعي... أوشك أن يفقدني عقلي... حياتي...».

بقي حسان في متاهاته، والأيام تمر، والظروف تتقلب... والفلك يدور... وفي
كل دورة يقف ليصبح... «ماذا أريد»؟؟ وأوشكت السنون أن تسرق من عمره
الكثير، وخطا الشيب رويداً رويداً... ولكن بقي في قلبه خيط متين يشده إلى المتعة
واللذة فيغترف منها ما يشاء وينهل منها ما يريد... وظل السؤال المحير يعرّبد في
مخيلته... فلم يجد له جواباً... ولا لقلقه مأمناً، ولا لفكره مستقراً...
وبمرور الأيام... اشتدت أزمته... وازدادت حيرته... واسودّت الدنيا في
عينيه... فانكمش على نفسه، وانعزل عن المجتمع الصاخب الذي كان يعيش فيه...
وأخذت الوردة الياضعة التي كانت تترّج على شبابه تذبل... فرحل إلى جزيرة صغيرة
ليخلو إلى أفكاره وتأملاته... ويناجي البحر... والبحر من حوله صامت...
عميق... ضنين...

وبدأ يحسب الأيام التي مرت.. والشهور التي فنيت، والسنين التي انقضت...
«كنت سعيداً... وكان حظي وافراً... وكل جوانب حياتي ممتلئة بالجمال
والذكريات العذبة... لم أحس بالحرمان... ترى: ما الذي شدني إلى القلق
والحيرة؟؟...»

هل هي المسؤولية؟؟.

تجاه من؟؟

لقد كنت على قدر المسؤولية في كل شيء... حتى المجتمع الذي أعيش فيه قدمت
له خدمات جليلة...

أهي القناعة والزهد؟؟...

لا... إني مازلت أنهل من بحر اللذات ولم أرتب بعد!!

لقد كنت أظن أن هذه الفترة من التساؤلات والقلق والحيرة التي لازمتني في الآونة الأخيرة ما هي إلا شعور بالذنب... أو سحابة صيف ثم تنقشع، ولكنها أخذت تزداد قوة وتزداد عنفاً يوماً بعد يوم.

لعل ضميري قد استيقظ مؤخراً؟!...

ولكن... لِمَ يستيقظ وأنا مقتنع بأن ما أعمله هو تلبية لنداء قوي ينبع من أعماق أعماق نفسي...»...

... ولمعت عيناه ببريق خاطف وهو يحمق في الأفق البعيد... وأمواج البحر تتهاوى أمام ناظريه... وتهمس في أذنيه بأصداء وكأنها قادمة من عالم آخر... وسرى في جسمه تيار لم يشعر به من قبل... وأخذ يردد... «نفسى... نفسى... أعماق أعماقها...».

إذن...

ولم يستطع حسان أن يكمل... وأوقف أفكاره... وقطع تأملاته ووقف مشدوهاً: «لقد عشت حياة الضياع... حياة مليئة بالمتعة واللذة والمرح لأخفي وراءها ضعفي... لأستر فيها عن نفسي... لأهرب من واقعي...».

وصاح داخل نفسه هاتف قوي رددت أصداءه أمواج البحر... ولم يستطع المقاومة... وخطا إلى الشاطئ خطوات ثقيلة... وجال فيما حوله بعين زائغة حائرة... وكأن البحر يناديه... وكأن الموج يفتح له ذراعيه ليحتضنه في حنان ورقة وعدوبة... وسمع صوتاً من أعماق نفسه... أعماق أعماقها... يحثه على المضي... يدفعه إلى السير... على الإرتواء في أحضان البحر.

ووقف ساكناً... يسترجع في لحظات أيامه ولياليه... ويجتر ذكر ياته القديمة: «لقد أخذت حظي من الدنيا... واستمتعت بملذاتها ومطايها... فوداعاً أيتها الحياة... وداعاً...»

«إنني أحببت البحر ولم أستطع اكتشاف سره ولا معرفة كنهه... أما وقد عرفت نفسي... فسأغوص في الأعماق لأكتشف أسرار البحر وعظمته...»

وخالقك ما في مفارقة

سورة التين



وما ظفك ما في مفارقة

الناس مقامات... وهم في دنياهم طبقات...
وكلُّ ارتضى بما قسمه الله له من رزق، وقنع بما أعطاه. وبذلك تهيأت لكل إنسان
الراحة والطمأنينة.

كان عم سالم «بياع المقلية» في دكانه الصغير بالقرب من بيتنا أكبر مثل على
ذلك، وأحسن من تنطبق عليه هذه النظرية... ورغم ذلك فهو دوماً عابس
كثيب... لا يعرف المرح طريقاً إلى وجهه، ولا يفتر ثغره إلا على ابتسامة هزء
وسخرية، فهو يسخر من نفسه، وهزأ من كل شيء تقع عليه عيناه ولا يعبأ بالدنيا إن
هي أقبلت أو أدبرت... وقد يبدو أحياناً متبرماً من نفسه منعزلاً عن الناس.
إلا أنني كنت أحس إحساساً عميقاً داخلياً أنّ في جوف هذا الرجل قلباً طيباً...
فخصاله تدل على طبيعة سمحاء رغم تظاهره بالصرامة والشدة وحدة الطبع. وكنت
أميل إليه لسبب خفي، وكان هو يأنس إليّ دوماً.
وعندما أشتري منه مقلية بنصف ريال... لا ينسى أبداً أن يزودني بحبة أو اثنتين
«وصاية» كما يقول، ويودعني بكلمة حلوة، ولا ينسى أبداً أن يردد كلمته (انتبه
لنفسك يا واد).

عندما سألته مرة، لماذا تضيق بنفسك وبمن حولك ومن البشر أجمعين؟
أجاب في صوت مليء بالتأسّي والحزن... وكأنني أسمع صوته لأول مرة...
«روح في شغلك وخليني في حالي»... وعندما أصررت عليه مرة طالباً منه أن يقص

علتي حكايته محاولة متني في معرفة سره الدفين... جلسنا أنا وهو بعد أن أوشك على الانتهاء من مقلتيه وأخذ يحكي:

— «آه يا ولدي... دي قصة طويلة... لا... قول... قصص... شوف (ومسك بيده اليمنى شعرات من لحيته الصغيرة البيضاء)... شوف شعري صار أبيض كيف وأنا لسا شباب... تدري من إيه؟؟ من نكد الدنيا... الدنيا دي يا ولدي عميا... وأنا حظي كمان فوق هادا كله... أسود... ولما ينطبق النكد الحظ الأسود على الإنسان وما يفارقه أبداً قول عليه السلام»...

أردت أن أقاطعه ولكن نظرة صارمة من عينيه جعلت الكلمات تتحجر في حلقي... وأخذ يستطرد...

— «من صغري وخالقك وأنا تعيس، تقول اتخلقت أنا والشقاوة في يوم واحد... تقول أنا وهي في سباق متواصل...»

(ونظر بعيداً وكأنه يستجمع شتات أفكاره)...

«أمي ماتت وأنا صغير، أخذتني ستي، وربّتي... راح أبويا الله يرحمه اتزوج واحدة ثانية، الله لا يورك... الرحمة منزوعة من قلبها، ولسانها تقول مرزاب حق السطوح لما ينفك، خصوصاً لما تزعل، ولا فتحة القرن حق عم يحيى اليماني... وسكت قليلاً... كأنه يستذكر شيئاً!!..»

«إيش كنت باقول يا ولدي... إيوه... نهايته... ربّتي ستي، وكانت الله يرحمها ويحسن إليها على قد حالها... من يوم ما كبرت وصرت أفك الحرف... أرسلتني إلى المعلم معتوق البتا عشان أشتغل معاه حجروطين... وآخر النهار أجيب في يدي كم قرش...»

«ما أكتر عليك... مشى الحال وربنا فتح علتي، وصرت كل يوم أتعلم شوية شوية وقلت في نفسي بكرة تصير «يابا» والّا «قراري» ويصير لك شتّة ورثة... ما فقت من الحلم... إلّا واليابا معتوق ميت الله يرحمه ويتغشاه بالرحمة... فضلت زي ما تقول كده شهر والّا شهرين عاطل من غير شغل...»

— «أروح لابويا يطردني من البيت ويقول: «روح خلي ستك تأكلك»، ولما يشتد

بي الجوع ولا ألقى لقمة أسد بها حلقي، ترسلني ستي لمرات أبويا عشان تأكلني... وبدال ما تأكلني لحمه ورز وعيش، ترعني ديكا العلقه اللي ما أنساها.

واشتغلت.. واتصكعت، ما خليت صنعة ولا مهرة... الآ وما اتعلمتها... شيء عرفته وحييته، وشيء والله ما حييته وصرت أشرد منه...».

«يوم ورا يوم مات أبويا وترك لي كم قرش راحت الحرمة المصيبة مستولية عليها... صحت، ونحت، وبكيت، ولا في أجد مجاوب...».

«رحت اشتكيت للضابط اللي في الكركون جنبنا... قال لي يا واد موعيب تشتكي وحدة ولية زي أمك... هيا روح انقلع من وجهي، وأنا أرسل لها مرسل من عندي... المهم... أصلح... أبرح... طلعت لي بنص المبلغ... قلت عال... نعمة وبنها، ورحت أجري اشترت لستي الدواء اللي تبغاه وشوية قرنتع للبيت، والباقي طرت بيه للحلقة اشترت بيه كوم ليون وكوم فلفل أخضر وجريت الخيشة اللي على باب بيتنا وفرشتها في الأرض وصرت أصيح ليون بن زهير وفلفل منعنش... وعديت المكسب آخر النهار لقيته يشجع على البيع والشراء...».

«وتوسع الحال شوية شوية من البسطة إلى الدوار، وصرت أسرح كل يوم بالمقسوم... ما خليت خضرة ولا فاكهة من حقت الطائف إلا وبعث واشترت فيها، وفتح علي الفتاح، وقلت أبشريا واد بالفرج... لكن... مين... وفين...؟».

- «وصحيت لقيت ستي ممددة جنبي... بكيت... بكيت يا ولدي... وكانت أول مرة وآخر مرة أبكي فيها زي الحرمة، كانت ستي... الله يرحمها، كل شيء في حياتي... وكان أملها أنها تشوفني عريس ومتهني وفي بيت يجمعني مع بنت الحلال...».

- «وماتت المسكينة دون أن يتحقق أملها... وكنت عارف أنه ماراح يتحقق لا أملها ولا أملي...».

«وأقول لك إنه كمان... أقول اسودت الدنيا في عيني... ماهي سودة خلقة من زمان...».

«نهائته... مشيت زي أي جل على ظهره حمل كبير... واتخبطت، واتسكعت، ووقفت على أهلي وأقاربي وكان نصيبي والعياذ بالله الطرد والرزالة والبهلة...» .

«وضقت بالحياة، وصعبت عليّ عيشتي، وصرت أهذرش مع نفسي... خلاص... غلّقت الدنيا... ما عاد في رحمة في قلوب الناس... ما عاد في ناس يخافوا ربنا و يعطفوا على المساكين والفقراء والأيتام»....
«الله يرحمك يا ستي... لمن أشكي همّي، ولين أفتح صدري... وكرهت الدنيا... والناس... وكرهت حتى ثوبي اللي عليّ...»

وسكت عم «سالم» لحظة اختلست فيها نظرة إلى وجهه... ولو كان المداد يستطيع أن يرسم صورة للكآبة مجسمة تبرز فيها الملامح الذائبة لما وجد أفضل من وجه عم سالم... كانت كل عضلة في وجهه تختلج، وتتراقص عليها علامة أو علامات من الحزن...

— «إيه يا ولدي — وجذب نفساً عميقاً وأخذ يحكي — قابلني جارنا — الله يرحمه ويبيشش عظامه في الجنة — الشيخ أبوزامل . ومسكني من كتفي عندما حاولت أن أهرب منه... وقال: تعال يا سالم، انتا خايف منّي والآ إيه..؟ كنت جريئاً، ولا أخاف من أحد، ولكن في تلك الساعة دوّرت على كلمة وحدة أرد بها على الشيخ أبوزامل ما لقيت، سكّث وجرتني من أيدي زي الطلى وأخذني على البيت، بيته هُوّا... وقال لأهله: أعطوه ثوب من ثياب علي، وخليه يرمي هذا الهباب اللّي لابسسه، وكان لونه أسود مع أنّي أتذكّر أنّي لما لبسته كان لونه رمادي...» .

«واشتغلت عند عمّي أبوزامل صبي في الدكان... أشيل وأحط في أكياس الحَبّ والدُّخَنّ والصُّرة والرز، إلين صارت لي دبرة في ايدي وكتوفي... وكنت مبسوط ولكن... هه... ما قلت لك من بدري إن الشقاوة ورايا ورايا... طلع الواد علي أشقى من إبليس. كل يوم يتحرش بي، ويعيرني... ويلطخ بالكلام... وهين كرامتي...» .

«طلعت في رأسي يوم من الأيام وقلت له ... أنا صبي ... صبي، ما هو عيب لكن كرامتي فوق كل شيء، وإن تكثرت علي بعد كدة أورك شغلك ...» .
«الواد علي كان خفيف وزى الفلقة ... رقعتني قلّم ما شفت إلا والدنيا دارت بي ولّقت، وحسيت كأنه نار صبت على عيني، وفي سرعة البرق شالني فوق زي الطّرة ورماني على الأرض ... إخص ... قلت لنفسي ... طولك طول البغل، و يرميك واد طوله شبرين ... هجمت عليه زي الأسد ... وما أدري إيش صار بعدين .. كل اللي شفته دم ينزف من رأسه ...» .
«وأعطاني العم أبوزامل حسابي وقال لي كلام لدّحين يرن في أذني وخالقك ... آه ... الله يرحمك يا أبوزامل ... صحيح اللي ما يربيّه أهله يربيّه الزمان ... وأكلتها وسكت ... وثاني يوم لقيت نفسي في الشارع ...» .

«وأردت أن أعرف ماذا قال أبوزامل ... إلا أن العم سالم لم يخبرني رغم توسلاتي ... وسكت عندما قال : «لا تفتح الجرح مرة ثانية، وخليني ساكت ...» .

— «وكبرت يا سيدي»

وكبرت في عيني الدنيا ... وكثرت في رأسي الأفكار ... وصرت زي ما يقولوا الناس المتعلمين ... متفلسف ... كل شيء عندي له سبب، وكل شيء له بداية وله نهاية، وصرت أروح حلقات التدريس في الحرم ... أسمع ايش يقول سيدنا العالم .

وأهو ... من دا، ومن داك، ومن هنا، ومن هناك صرت أفهم وأقدر مصايب الزمان، وعرفت أنني وأنا الفقير اللي ما عندي حق العشا، أحسن من غيري الغني اللي في جيبه مئة وألف بس ربنا حارمه من الصحة والعافية ...» .

«وقلت يا واد أحمد ربك ... إنتا برضو ربنا معطيك القوة فقوم اشتغل سافر ... أضرب الأرض ... ومسكت مسحاة ورحت على القبور أحفر ... وأضرب الأرض ... وبعد كم شهر صرت قبورجي، وعجبتي هذي الصنعة أول الأمر ... هاذا الرجال الغني الوجيه اللي كان يوقف على بابهِ العزيز واليهين، والآ ذاك القصر الكبير اللي كان يهايش فيه، يتمدد قدامي في الحفرة زيه زي الثاني والثالث والرابع اللي ما كان في جيبهم هللة، هنا ... في الحفرة دي اللي حفرتها

أنا بإيدي يتساوى الجميع، فأنا وهم سواء... وحدة، وفقير، وإيمان بالله... ولما يجي عليّ الليل آخذ مسحائي، واشتري لي حلاوة وعيش وجبنة، واجري على حجرتي... اترك ورايا نظرات الغش والخداع التي كنت أشوفها صريحة ومخفية في عيون أقارب الميت...»
«الله... ما أحسنها عيشة!.. وما أحلاها دنيا ورضيت بيها!.. ولكن...»

وصدّرت من عم سالم زفرة قوية أحسست لهيها يلسع وجهي..» ولكن ماذا يا عم سالم... صحت، أكمل بالله عليك»
— «أكمل إيه يا ولدي... قوم روح شوف شغلك...»

ما عرفت نفسي أنني أحببت عم سالم وتمنيت لو أنني أعيش معه كما أحببته في تلك اللحظة... كان حديثه يشدني وكان شريط حياته يمر أمام عيني في بساطة ويسر كما لو كان شريطاً سينمائياً... وكان صادقاً في كل كلمة تخرج من فمه، صوته يعلو وينخفض حسب الموقف وجديته... وحلفت عليه إلا أن يكمل الحديث... وتابع متأوهاً:

— «... حتى في القبور، ومن بين الحفر التي كنت أدفن فيها الميتين، وأدفن فيها همومي معهم لاحقني النكد، وتبعتنني تعاسي التي لازمتني طول عمري... جا النعش... وكان الفقير يقرأ القرآن، وسمعت أحدهم يصيح: «إيش تشهدوا عليها»... وكان الجواب: «من أهل الخير والصلاح إن شاء الله»... ومسكت بالميتة ونزلتها القبر، وقبل ما أحط الطبقان وأعطيتها بالبرسيم والحشيش الأخضر لمحت وجهها... وكأن مطرقة كبيرة نزلت على رأسي... وحسيت كأن قلبي ينط من مكانه... هيّه والله العظيم هيّه... مرات أبويا... المرأة اللي ذوّقتني السم، وحرمتني من عطف أبويا وما كانت ترضى تعطيني لقمة عيش... هيّه... هيّه العقربة اللي ما كانت تخلّيني أدخل بيتنا بيت أبويا وبيتتي... ورفعت رأسي، ولقيت المودعين أعطوني ظهرهم... وبقيت أنا وهيّه لوحدا... ما في رقيب علينا سوى المنجبر القهار اللي يعلم ما في القلوب ويدري

ما تضرمره النفوس من خير وشر... ومسكت بالمسحاة في إيدي.. وقلبي يدق بشدة وبسرعة، وأحسست أن يدي ترتعش، وجسمي مبلل بالعرق... آه... ما أحلى الانتقام منها!!.. وسوّلت لي نفسي أن أضع أصابع يدي العشرة في عينها، وفي فمها، وأن أسحب لسانها وأقصه... وأقطعها إرباً إرباً... كنت يا ولدي أريد أن أشفي غلّي منها حتى لو كانت ميتة»....

— «ولكن»

— «ها... ولكن ماذا يا عم سالم؟.. قل لي بالله عليك... ماذا عملت؟».

— «ماذا عملت... خرجت من الحفرة، وجلست على أقرب حجر كبير بجوارها وحطيت رأسي بين يدي وغمضت عيني... كنت أفكر... وسرحت، وسمعت صوتاً من بعيد يقرأ القرآن... «إنك ميت وإنهم ميتون» وقت مفزوعاً ونظرت إليها... إلى وجهها وكان أبيض شاحب ما فيه حركة. وقت... سديت الحفرة... دفنتها من غير ما ألسها... ودفنت معها أحزاني... وقلت: يا واد... الميت مات، وخليك أكبر من ذلك، وبكرة تموت زيها...».

«ورجعت إلى البيت بعد ما رميت المسحاة في القبور وحلفت ما عاد أرجع إليها ثاني مرة إلا وأنا محمول على النعش».....

«تدري يا واد إيش صار بعدها».....؟؟؟؟

ونظرت إليه مرة أخرى، فوجدت في وجهه بشاشة لم أرها من قبل... واستطرد:

— «تعرف إنّي اتعلمت من داك الموقف ما تعلمته في العمر كله... وخالك إنّي من يومها اتغيرت... اتغيرت نفسيتي وصرت لا أبالي إن جات الدنيا والآن راحت، إن ابتسمت والآن عبت... طيب فين ديكا السلطة والجبروت اللي كانت فيها مرات أبويا... فين داك اللسان اللي كان يمتد ويشتم زي الرشاش... مين كان يقدر يرفع عينه فيها والآن يقول لها عينك في رأسك...».

«هناك... في القبور اتعلمت أنه لا مال ينفع، ولا جاه يفيد، ما يفيدك يا بني آدم إلا عملك الصالح، وإن متاع الدنيا كله فاني وما يصيبك يابوشعر أسود وعين فارغة إلا قطعة قماش ووصلة قطنة وحفرة صغيرة من نعيم الدنيا كله،

طبيب... وأنا مالي ودوشة الدماغ وحرق الدم، ما أبأت متهني وأصحى
أعّتي....»

«وخرجت إلى الدنيا وكأني مولود من جديد... ورحت ألقط رزقي من هنا
وهناك وأنا آخر ما يكون الانبساط... إلين بدأت أفكر في بنت الحلال اللي
تقبلني وأكمل بيها نص ديني، وتساعدني...
نهایتہ... وما أطول عليك....

لقيتها....»

«واتزوجت... وكنت حاطط في بالي ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم وما
معناه:» استبشروا بالمرأة والدابة والعتبة«... وقلت بلكن يا واد تحيك ويحك
معاها الخير وتتبدل أحوالك وتلاقي مين يهرج معاك ويسليك...

«وآه يا زماني آه... ما قلتك أنا والشقاوة اتولدنا سوا... دي يا ولدي مصيبة
ونزلت على رأسي، مدفع رشاش اتصوب عليّ. ما في يوم وخالقك إلا وما
صبتحتني فيه بغارة أو زعيق... تنام تزعق، تقوم تزعق، تجلس تزعق... ليه...
ما أعرف «كنت فين وحيتني منين... طلعت لي من أيّة حائية... حظي أسود
اللي طبيني فيك»، كانت تعيرني «يا فقير، يا قبورجي، ياندل»... «يا عرة
الرجال»، وغيره وغيره من الموشحات اللي كنت أسمعها منها...

«طبيب وأنا أعمل إيه يا ولدي... أسبها... ما يكفي، أخسرّها تزيد...
أطلقها... ما يهون عليّ واحنا لساعنا ما رحنا ولا جينا...»

وفي يوم زودتها شوية، سبتني، ولحقت أبويا وجد جدودي رحت هافها قلمين،
ولحقتها بشلوت من رجلي راحت الحرمة راکعة على ركبتيها ومرمية على الأرض،
قلت في نفسي... رحت في مصيبة يا واد... شوية... ورفعت رأسها والدموع
في عينها...

«كده يا حبيبي تضربني»... قالتها في صوت رقيق أول مرة وخالقك أسمع
كلمة حبيبي من فمها...

بس، وعرفت السر...

كل يوم أصبّحها بعلقة، وأمسيها بعلقة، سارت الحرمة تمشي زي الساعة...

وصارت الوليّة متعلّقة فيّ ، إن غبت عن عينا تدور عليّ ، وإن حببت أسهر بره ما
تخليني، وشغل تسوان ، إخص على دي دنيا ، وإخص على كده حرم
طيب الحماريا ولدي إن كوّذت عليه يرفس ، وهادي إن شديت عليها تجنّ
أقول لك الصحيح ، ما عجبتني الشغلة ... يّدي فثرت وجسمها سار كله
أماريات من الضرب

و يوم ورا يوم صغرت هيّا في عيني ، واحتقرت أنا نفسي ، وصار ضميري
يؤنبني ... ومع مزور الأيام صار الضرب عادة ، وإن ما شَبَقْها ضرب تشبّعني
سب وشم ... وقلت لنفسي ما تخلص من دا غلب ، ومن دي عيشة ...
وراحت بيت أهلها
وفضلت لحالي ، مبسوط ... أغتني على كيفي ، وأنام وأصحى على كيفي ،
وأهو ... الدنيا ماشية»

وسكت عم سالم ، وأطبق على طرفي عينيّه — كعادته عندما يفرق في فكرة عميقة —
وفجأة صاح :
— «إننا متزوج يا واد؟؟»
— قلت ... لا ... يا عم سالم ... ولكن لماذا تسأل؟؟
— قال ... «إن اتزوجت ... إصحا تضرب الحرمة ... إصحا ... خذ نصيحة
مغرب ... وهيّا قوم انقلع عن وجهي ... روح شوف شغلك ...» .

وقت أمشي ... وأفكاري تائهة في دنيا عم سالم الغريبة ... أحقّا لم يرسعادة في
حياته؟؟
أحقّا لم يذق طعم الراحة والهناء منذ أن ولدته أمّه؟؟؟ ... أوّاه ... كم في هذه الدنيا
من بؤساء تمساء

* * *

وازدادت محبة عم سالم في قلبي ، وصرت لا أنضايق من عبوسه إن كلمته أو ألقيت
عليه تحية المساء ولم يجب فقد عرفت سرّه ...
وعرفت أن الابتسامة الحقيقية منبعا للقلب ... وقلب عم سالم قد مات من زمن
بعيد .

* * *

الفهرست

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٩
تعريف وإهداء	١٥
أيام مبعثرة	١٧
الشجحات	٢٧
سحابة دخان	٣٧
ضوء القمر	٤٧
آخر ك بابه يادشيش	٥٧
حوار	٦٥
اللسان المر	٧٥
الأستاذ علي	٨٥
شيء ما	٩٧
وخالقلك ماني مفارقلك	١٠٣

إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة : الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

المؤلف	الكتاب
الأستاذ أحمد قنديل	• الجيل الذي صار سهلاً
الأستاذ محمد عمر توفيق	• من ذكريات مسافر
الأستاذ عزيز ضياء	• عهد الصبا في البادية
الدكتور محمود محمد سفر	• التنمية قضية
الدكتور سليمان محمد الغنام	• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا
الأستاذ عبد الله جفري	• الظلم
الدكتور عصام خوقير	• الدوامه
الدكتورة أمل محمد شطا	• غداً أنسى
الدكتور علي طلال الجهني	• موضوعات اقتصادية معاصرة
الدكتور عبد العزيز حسين الصويغ	• أزمة الطاقة إلى أين؟
الأستاذ أحمد محمد جمال	• غوتربية إسلامية
الأستاذ حمزة شحاتة	• إلى انتني شيرين
الأستاذ حمزة شحاتة	• رفات عقل
الدكتور محمود حسن زيني	• شرح قصيدة البردة
الدكتورة مريم البغدادي	• عواطف إنسانية
الشيخ حسين باسلامة	• تاريخ عمارة المسجد الحرام
الدكتور عبد الله حسين باسلامة	• وقفة
الأستاذ أحمد السباعي	• خالتي كدرجان
الأستاذ عبد الله الحصين	• أفكار بلا زمن
الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع	• علم إدارة الأفراد
الأستاذ محمد الفهد العيسى	• الإنجاز في ليل الشجن
الأستاذ محمد عمر توفيق	• طه حسين والشيخان
الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي	• التنمية وجهاً لوجه
الدكتور محمود محمد سفر	• الحضارة تحذ
الأستاذ طاهر زعترشي	• عبر الذكريات
الأستاذ فؤاد صادق مفتي	• لحظة ضعف

- الأستاذ حمزة شحاتة
- الأستاذ محمد حسين زيدان
- الأستاذ حمزة بوقري
- الأستاذ محمد علي معربي
- الأستاذ عزيز ضياء
- الأستاذ أحمد محمد جان
- الأستاذ أحمد السباعي
- الأستاذ عبد الله جعري
- لدكتور فائدة أمين شاكر
- لدكتور عصام خوير
- الأستاذ عزيز ضياء
- الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
- الأستاذ أحمد قنديل
- الأستاذ أحمد السباعي
- الدكتور إبراهيم عباس نتو
- الأستاذ سعد البواردي
- الأستاذ عبد الله بوقس
- الأستاذ أحمد قنديل
- الأستاذ أمين مدني
- الأستاذ عبد الله من خيس
- الشيخ حسين عبد الله باسلامة
- الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ
- الدكتور عصام خوير
- الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
- الأستاذ عزيز ضياء
- الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
- الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
- الأستاذ أحمد عبد الفقور عطار
- الأستاذ محمد علي مغربي
- الأستاذ حسين سراج
- الأستاذ محمد حسين زيدان
- الأستاذ عبد العزيز الرفاعي
- الدكتور فؤاد عبد السلام الفارسي
- الرجولة عماد الخلق الفاضل
- ثمرات قلم
- بائع التبغ
- أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة
- النجم الفريد
- مكانك تحمدي
- قال وقلت
- نبض ...
- نبت الأرض
- السعد وعد
- قصص من سوعست موم
- عن هذا وذاك
- الأصداف
- الأمثال الشعبية في مدن الحجاز
- أفكار تربوية
- فلسفة المجانين
- خدعتني بحبها
- نقر العصفار
- التاريخ العربي وبيداته
- المجازين اليمامة والحجاز
- تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها
- خواطر جريئة
- السنبورة
- رسائل إلى ابن بطوطة
- جسور إلى القمة
- تأملات في دروب الحق والباطل
- الحمى
- قضايا.. ومشكلات لغوية
- ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز
- الشوق إليك
- كلمة ونصف
- زيد الخير
- قضايا سياسية معاصرة
- (مجموعة قصصية مترجمة)
- (ترجمة)
- (مسرحية)
- (ترجمة)
- (شعر)
- (مجموعة قصصية)
- (شعر)
- (قصة طويلة)
- (شعر)
- (شعر)
- (مسرحية شعرية)

نعت الطبع :

- عام ١٩٨٤ لجورج أورويل
- مشواري مع الكلمة
- وجيز النقد عند العرب
- لن تلحد
- الإسلام في نظر اعلام الغرب
- قصص من طاغور
- أبيامي ..
- ماما زبيدة
- مدارسنا والتربية
- دوائر في دفتر الزمن
- من حديث الكتب
- الموزون والمخزون
- ألحان مغترب
- هكذا علمني وردزورث
- وحي الصحراء
- لجام الأفلام
- أصدااء قلم
- قراءات في التربية وعلم النفس
- إليها
- حتى لا نفقد الذاكرة
- غرام ولادة
- أحاديث
- نقاد من الغرب
- شيء من حصاد
- (ترجمة)
- الأستاذ عزيز ضياء
- الأستاذ حسن عبد الحفي قزاز
- الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
- الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
- الشيخ حسين عبد الله باسلامة
- الأستاذ عزيز ضياء
- الأستاذ أحمد السباعي
- الأستاذ عزيز ضياء
- الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع
- الأستاذ سباعي عثمان
- الأستاذ محمد سعيد العامودي
- الشيخ أبو تراب الظاهري
- الأستاذ طاهر زنجشيري
- الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
- الأستاذ عبد الله بلخير
- الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود
- الشيخ أبو تراب الظاهري
- الأستاذ محمود عارف
- الأستاذ فخري حسين عزي
- الأستاذ حسين سراج
- الأستاذ سعد البواردي
- الأستاذ حسين سراج
- الدكتور عبد الرحمن بن حسن النفيسة
- الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
- الأستاذ حامد مطاوع
- (ترجمة)
- (مجموعة قصصية)
- (مجموعة قصصية)
- (شعر)
- (مجموعة قصصية)
- (شعر)
- (مجموعة شعرية)

سلسلة:

الكتاب الجامعي

صدر منها:

- الإدارة: دراسة تحليلية للموظائف والقرارات الإدارية
 - الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق
(باللغة الانجليزية)
 - التومن الطفولة إلى المراهقة
 - الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا
 - النفط العربي وصناعة تكريره
 - الملامح الجغرافية لدروب الحجيج
 - علاقة الآباء بالأبناء
(دراسة فقهية)
 - مبادئ القانون لرجال الأعمال
 - الاتجاهات العددية والتنوعية للدوريات السعودية
 - مشكلات الطفولة
 - شعراء التروبادور
(ترجمة)
 - الفكر التربوي في رعاية الموهوبين
 - النظرية النسبية
 - أمراض الأذن والأنف والحنجرة
(باللغة الانجليزية)
- الدكتور مدني عبد القادر علاقي
الدكتور فؤاد زهران
الدكتور عدنان جمجوم
الدكتور محمد عويد
- الدكتور محمد جميل منصور
الدكتور فاروق سيد عبد السلام
الدكتور عبد المنعم رسلان
الدكتور أحمد رمضان شقلية
الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
الدكتورة سعاد إبراهيم صالح
الدكتور محمد إبراهيم أبو العينين
الأستاذ هاشم عبده هاشم
الدكتور محمد جميل منصور
الدكتورة مريم البغدادلي
الدكتور لطفي بركات أحمد
- الدكتور عبد الرحمن فكري
الدكتور محمد عبد الهادي كامل
الدكتور أمين عبد الله سراج
الدكتور سراج مصطفى زقزوق

تحت الطبع:

- الأدب المقارن
(دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)
 - هندسة النظام الكوني في القرآن
 - المدخل في دراسة الأدب
 - الرعاية التربوية للمكفوفين
- الدكتور عبد الوهاب عبي احكمي
الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر
الدكتورة مريم البغدادلي
الدكتور لطفي بركات أحمد



تصنيف:

- [illegible]

- وللخوف عيون
- سوانح وخطرات
- الحجاز واليمن في العصر الأبوي
- جهاز الكلية الصناعية
- القرآن.. ودنيا الإنسان
- أدباؤنا في سيرهم الذاتية
- الزمن الذي مضى
- (مجموعة قصصية)
- الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
- الدكتور جميل حرب محمود حسين
- الدكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر
- الأستاذ صلاح البكري
- الأستاذ علي بركات
- الأستاذ صالح إبراهيم
- (مجموعة قصصية)

رسائل جارية

صدر منها:

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية)
- الدكتور بهاء حسين غزي
- العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن
- الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت
- الحراسانيون ودورهم السياسي
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف
- القصة في أدب الجاحظ
- الأستاذة أميرة علي المداح
- الأستاذة موزي بنت منصور بن عبد العزيز آل سعود
- الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- الأستاذة فوزية حسين مطر
- الأستاذ عبد الله باقازي

تحت الطبع:

- نظام الحسبة في العراق.. حتى عصر المأمون
- افتراءات فليب حتي، وبروكلمان على التاريخ الإسلامي
- الامكانيات النووية للعرب وإسرائيل
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية
- الأستاذ رشاد عباس معتوق
- الأستاذ عبد الكريم علي باز
- الأستاذ صدقة يحيى فاضل
- الأستاذ نبيل عبد الحي رضوان

كتاب للناسئين

وطني الحبيب

صدر منها:

- جدة القديمة
- الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

تحت الطبع:

- جدة الحديثة
- حكايات للأطفال
- قصص للأطفال
- الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
- الأستاذ عزيز ضياء
- الأستاذة فريدة فارسي

كتاب للطفال

لكل حيوان قصة - الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

صدر منها :

• الدجاج	• الذئب	• القرد..
• البط	• الأسد	• الضب
• الغزال	• البغل	• الثعلب
• الحمار الوحشي	• الفأر..	• الكلب
• البقاء	• الحمار الأهلي	• الغراب
• الوعل	• القراشة	• الأرنب
• الجاموس	• الخروف	• السلحفاة
• الحمامة	• الفرس	• الجمل

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English By Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.
By F. M. Zahran
A.M.R. Jamjoom
M.D. EED
- Zaki Mubarak: A Critical Study.
By Dr. Mahmud Al Shihabi
- Summary of Saudi Arabian
Third Five year Development Plan
- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference
By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.
- The Health of the Family in A Changing Arabia
By Dr. Zohair A. Sebai
- Diseases of Ear, Nose and Throat
Dr. Amin A. Siraj
Dr. Siraj A. Zakzouk
- Shipping and Development in Saudi Arabia
By Dr. Baha Bin Hussain Azzee
- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who's Who in Saudi Arabia



الهوّلة

- ❶ ولد في مكة المكرمة وتلقى بها تعليمه الابتدائي والثانوي.
- ❷ حصل على شهادة الليسانس من جامعة القاهرة، ودبلوم علاقات عامة من لندن.
- ❸ بدأ عمله بالصحافة عام ١٣٧٧هـ، ولا يزال يساهم بقلمه في مختلف الصحف المحلية حتى الآن.
- ❹ أصدر أول مجلة رياضية متخصصة عام ١٣٨٠هـ، واستمر يصدرها حتى صدور نظام المؤسسات الصحفية.
- ❺ عمل في أجهزة الدولة في مجالات التعليم والمال والإعلام.
- ❻ اشترك في العديد من المؤتمرات الدولية، ثم طلب إحالته إلى التقاعد.
- ❼ ساهم في النشاطات الرياضية، وشارك في إدارات أندية الوحدة والنصر والأهلي.
- ❽ انتخب أول رئيس لمجلس إدارة أول مؤسسة تجريدية لحجاج أوروبا وأمريكا.
- ❾ صدرت له رواية اجتماعية بعنوان (لا ظل تحت الجبل) تدور أحداثها في مكة المكرمة.

TIHANA
AYYAAM MUBA' SHRAA
10400166
SR- 10

مكتبات تهامة

١٢

المطبعة العربية -